مَعالِمُ النِزَال في سُورةِ القِتَال

مَلحَمةُ غَزَّةَ أنموذجاً

تأليف/ د. وسيم فتح الله

معالم النِزال في سورة القتال
ملحمة غزة أنموذجاً

الحمد لله مُنزل الكتاب، الحمد لله مُجري السحاب، الحمد لله هازم الأحزاب، والصلاة والسلام على رسوله المبعوث بالرحمة لكل من آمن وأناب، وبالسيف على كل من حارب من كافرٍ ومرتاب، وعلى آله الطاهرين والأصحاب، وكل من تابعهم بالحق حاكماً وبالحديد رادعاً لكل طاغيةٍ كذّاب، وبعد؛

فإن الله تعالى خلقَ الخلق ولو شاء لهداهم أجمعين، وجعل الدنيا دار ابتلاءٍ للمكلَّفين، وجعل الآخرة دار جزاءٍ للعاملين، وكلٌ ميّسرٌ لما خُلق له؛ فخلق الله الجنة وخلق لها أهلاً هو أعلم بصلاحهم لها، وخلق الله النار وخلق لها أهلاً هو أعلم باستحقاقهم لها، فالجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق[1]، فللجنة أهلها، وللنار أهلها، والنبيّون مبلِّغون عن الله طريقَ الهداية إلى الجنة، ومحذّرون عن الله طرق الغواية إلى النار، وختم الله تعالى رسالاته ببعثة سيد المرسلين، لتبقى رسالته حجةً على الخلق إلى قيام

[1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق) صحيح البخاري – حديث ٧٤٩٩

الساعة، والساعة حقٌ لِتُوفَّى كلُّ نفسٍ ما عملت وهم لا يُظلمون، من كان منهم متابعاً لنبيه قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم مؤمناً ببشارته، ومن كان متابعاً لمحمد صلى الله عليه وسلم مؤمناً به بعد بعثته، فلا يحسبن أحدٌ أن كافراً سينجو بكفره إن مات عليه، ولا يحسبن أحدٌ أن ظالماً سيفلت بظلمه وحربه لله ولرسوله وللمؤمنين إن مات على ظلمه، كيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الخيلُ لثلاثة؛ لرجلٍ أجر، ولرجلٍ ستر، وعلى رجلٍ وزر... فسُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحُمُر، قال: ما أنزل الله عليَّ فيها إلا هذه الآية الفاذّة الجامعة (**فمن يعمل مثقال ذَرّةٍ خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذَرّةٍ شراً يره**)[2]"[3].

ولقد يوسوس الشيطان لعباد الله المؤمنين في مشهد التوحش المجرم لطواغيت الصهاينة المحاربين لله ورسوله، الموغِلين في دماء المسلمين في غزة اليوم، مشككاً إياهم في وحدانية الله في ربوبيته، وقيُّوميّته على الخلق، ومشككاً إياهم في وحدانية الله تعالى في ألوهيته واستجابته دعاء المستضعفين، ومشككاً إياهم في وحدانية الله تعالى في أسمائه وصفاته كالقوي العزيز المنتقم الجبار، وعباده المؤمنون ضعفاءُ مقهورون مستباحون مفتونون

---

[2] سورة الزلزلة ٧-٨

[3] صحيح البخاري – حديث ٤٩٦٢ مختصراً

بطواغيت الصهاينة والصليبيين المحاربين، يريد الشيطان بوساوسه ليفتنهم عن دينهم، كما يريد أتباعه مِن عبدة الطاغوت من الصهاينة الصليبيين ومَن شايعهم، فكان لزاماً على المسلمين في هذه المحنة العصيبة والفتنة الطاغية، أن يفيئوا إلى كتاب الله وهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليثبتوا على عقيدتهم، إذ لا ثبات لهم أمام هذه الفتنة الهوجاء إلا بالثبات على قاعدةٍ صلبةٍ من اليقين بأن الله حق، كما أخبر عز وجل عن نفسه العلية، وكما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قامعاً لوساوس الشيطان، ومرسخاً لقواعد الإيمان في هذا الدعاء العظيم، والبيان الرصين الذي علّمنا إياه صلى الله عليه وسلم في تهجده:

"اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت قيّم السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أَنبْت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر

لي ما قدّمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت"[4]،

فهذا الحديث العظيم قامعٌ لفتنة الشيطان، مطَمئِنُ قلوب عباد الرحمن، فننطلق منه بإذن الله تعالى، مستعينين بالله، راجين الله سبحانه التوفيق والسداد في استقراء معالم النزال في ملحمة المرابطين من أهل غزة المسلمة في وجه آلة التوحش الهمجي من محاربي الصهيونية الصليبية الطاغوتية، وذلك من خلال سورة محمد، لتستبين معالمُ المعركة، وليتميز فرقاؤها، وليعرف مآلها، وليُعمل بموجباتها بإذن الله، والله أسأل التوفيق والسداد في الحق إن أصبت، والعفو والمغفرة عن الزلل إن أخطأت، وإني في التدبر في معاني الآيات لا أخرج عن صحيح المأثور بإذن الله، وفي إسقاط بعض المعاني على الواقع أنظر فيها ما استطعت من جهة معالم السياسة الشرعية القائمة على موازنة جزئيات الواقع لتحقيق أكبر قدرٍ من الرجحان جهة الحق وجهة مقاصد الشريعة، فإن وفقت فبفضل الله، وإن جانبت الصواب فأنا عنه راجع وإلى الله منه تائب، ولمن نبهني عليه بالدليل من إخواني المسلمين شاكر، والله المستعان.

---

[4] صحيح البخاري – حديث ٧٤٩٩

تعريف موجز بسورة محمد:

سورة محمد السورة السابعة والأربعون في ترتيب المصحف، وهي مدنية، وتسمى "سورة القتال" أيضاً، وقال الإمام السيوطي في مناسبة ترتيبها لما قبلها: "لا يخفى وجه ارتباط أولها بقوله في آخر الأحقاف (**فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون**)[5]، واتصاله وتلاحمه، وبحيث لو أُسقطت البسملة منه لكان متصلاً اتصالاً واحداً لا تنافر فيه، كالآية الواحدة آخذاً بعضه بعنق بعض"[6]؛

قال الإمام الطبري في تأويل آخر سورة الأحقاف:" وقوله (**فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون**) يقول تعالى ذكره: فهل يُهلك اللهُ بعذابه إذا أنزله إلا القوم الذين خالفوا أمره، وخرجوا عن طاعته وكفروا به؟ ومعنى الكلام: وما يهلك الله إلا القوم الفاسقين"[7] ؛

قلت: فلما لم ترعوِ الأمم الكافرة فتسلم لله بعد البلاغ، وحاربت الله ورسله، لم يبق إلا الهلاك بعذاب الله، وإن مجاهدة الكفار المحاربين لَمِمّا يعذب الله تعالى به مَن فسق عن أمره، وكفر، وعاند وحارب، قال الله

---

[5] سورة الأحقاف - ٣٥

[6] أسرار ترتيب القرآن – السيوطي – ١٣١

[7] تفسير الطبري- ١٠/١٧٨

تعالى: (**قاتِلوهم يُعذّبهم الله بأيديكم ويُخزِهم وينصركم عليهم ويشفِ صدور قومٍ مؤمنين**)[8]،

قلت: فسورة محمد – سورة القتال- بيانٌ عن لونٍ من ألوان عذاب الله تعالى للأمم الفاسقة الكافرة المحادّة لله ولرسوله وللمؤمنين، وهو عذابهم بأيدي عباده المؤمنين، ودمارهم بجهادهم في سبيل الله على سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلنتدبر معالم هذا العدل الرباني في نزال أولياء الرحمن لأولياء الشيطان، ولنتدبر في مآل كلٍ من الفريقين في العاجل والآجل، عسى الله أن يصطفينا لما يحب ويرضى من مواضع النزال هذه، فيُعذب من شاء بأيدي عباده المجاهدين، ويؤجر مَن شاء مِن القاعدين أولي الضرر والمعذورين، ويخزي بنصره للمؤمنين أعداءه من الكافرين، ويشف بذلك صدور قومٍ مؤمنين.

[8] سورة التوبة - ١٤

أولاً: حقيقة المعركة والفرقان بين أهل الكفر والإيمان:

إن إزهاق الأرواح وإتلاف الأموال وهجرة الأهل والعيال ليس بالشيء الهيّن فيما جبل الله النفوس عليه، وإن من الخسران المبين أن يفتدي المرء بذلك كله عرضاً زائلاً من أعراض الدنيا الفانية، وإن الفوز العظيم الذي بشّر الله به عباده المؤمنين أن يُبذل ذلك في سبيل الله سبحانه وتعالى، فهو المعطي لذلك كله بفيض كرمه، وهو الذي يستوفي ذلك ويكافئ عليه بفيض جوده، ولهذا قال عز وجل: **(والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضل أعمالهم)**[9] قال الطبري رحمه الله: "فلن يجعل الله أعمالهم التي عملوها في الدنيا ضلالاً عليهم كما أضل أعمال الكافرين"[10].

فلنتدبر إذاً ولنتلمس معالم النزال العقدية في فاتحة هذه السورة العظيمة، لتكون نبراساً مضيئاً لكل مؤمنٍ أراد أن يحمل روحه وماله على كفيه ليكون ذلك فيما هو حقيقٌ بأن تُرخص له الأنفس، وتهدر في سبيله الأموال، ويُهجر له الأهل والعيال.

---

[9] سورة محمد - ٤

[10] تفسير الطبري – ١٠/١٨٥

قال الله تعالى: (**ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ. وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ. ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ**)[11]؛

افتتحت السورة بأسماء الدين العظيمة، أعني اسم الإيمان والكفر، التي هي محور افتراق أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وإنما ناسب البدء بذكر الكفار لما تقدم من بيان اتصال السورة بخاتمة سورة الأحقاف المنبئة عن هلاك الأمم، ولمناسبة افتتاحها **ببيان سبب مجاهدة الكفار المحاربين ألا وهو انضمام صفة الصد عن سبيل الله إلى اسم الكفر**، وكأن ابتداء السورة بذكر الكفار إشارة إلى أن الكفرَ أمرٌ طارئٌ على الفطرة وعلى العقيدة، وأن التوحيد والإيمان بالله ورسله وكتبه هو الأصل الذي يتعرض له طارئ الكفر بالعدوان والحرابة، وبهذا يتم تحرير مناط قتال الكفار؛

فالكفار يجاهَدون جهاد الطلب بعد قيام الحجة الرسالية عليهم، ويجاهَدون جهاد الدفع حين يعتدون على حرمات المسلمين، وهذا الأخير أعني جهاد

[11] سورة محمد – الآيات ١-٣

الدفع، واجبٌ على الأمة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فأما إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين، فإنه يصير دفعه واجباً على المقصودين كلهم، وعلى غير المقصودين لإعانتهم...فهذا دفعٌ عن الدين والحرمة والأنفس، وهو قتال اضطرار"[12].

فمناط قتال الكفار في هذه السورة اجتماع اسم الكفر وصفة الصد عن سبيل الله؛ وهذا يحتاج إلى تفصيل:

فأما **اسم الكفر** فصريحٌ في صدر الآية الأولى من السورة (الذين كفروا)؛ قال الطبري رحمه الله:" يقول تعالى ذكره: الذين جحدوا توحيد الله وعبدوا غيره"[13]، وقال ابن كثير رحمه الله:" (الذين كفروا) أي بآيات الله"[14]،

وأما **صفة الصد عن سبيل الله** فصدٌ معنويٌ وصدٌّ حسي؛

أما **الصد المعنوي** فبجحود توحيد الله وجحود رسله وكتبه، وبإلقاء الشبهات في قلوب المؤمنين، كما قال الطبري رحمه الله: "وصدّوا من أراد عبادته والإقرار بوحدانيّته، وتصديق نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم عن الذي أراد من الإسلام والإقرار والتصديق"[15]،

---

[12] السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية – ابن تيمية – ١/١١٣

[13] تفسير الطبري- ١٠/١٧٩

[14] تفسير ابن كثير – ٧/٤٠٩

[15] تفسير الطبري- ١٠/ ١٧٩

وأما **الصد الحسي** فكما ذكر القرطبي عن الضحاك: "عن سبيل الله: عن بيت الله بمنع قاصديه"[16]، قلت: وهذا على سبيل ضرب المثال.

وهذان النوعان من الصد هما عنوان أعمال الكافرين التي أبطلها الله تعالى بإبطال حجتها بما أنزل من الحجج البينات في كتبه وعلى رسله، وبإبطال ما كانوا يرجون من مآلها كما قال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: (أضل أعمالهم): " أي أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها جزاءً ولا ثواباً"[17].

وأما اسم **الإيمان** فقد صرحت به الآية التالية بقوله تعالى: (والذين آمنوا) أي "آمنت قلوبهم وسرائرهم وانقادت جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم"[18]، وقرنت الآية اسم الإيمان بالعمل الصالح لتلازمهما إذ لا إيمان دون عمل، كما قال الطبري رحمه الله:" (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) يقول تعالى: والذين صدّقوا الله وعملوا بطاعته واتبعوا أمره ونهيه"[19].

وهنا ملحظٌ دقيق وهو أن الله عبَّر عن أعمال الكفار بالصد عن سبيل الله وكأن الآية تشير إلى **أن كل أعمال الكفار إنما هي نوعٌ من أنواع الصد عن سبيل الله**، وأكد ذلك بقوله (أضل أعمالهم)،

---

16 تفسير القرطبي- ١٦/١٩١
17 تفسير ابن كثير – ٧/٤٠٩
18 تفسير ابن كثير – ٧/٤٠٩
19 تفسير الطبري- ١٠/١٧٩

قال الطبري:" يقول: جعل الله أعمالهم ضلالاً على غير هدى وغير رشاد، لأنها عُملت في سبيل الشيطان وهي على غير استقامة"[20]، في حين عبّرت الآية عن أعمال المؤمنين باسم العمل مقيّداً بالصلاح، وفي هذا إشارة إلى أمرين مهمين؛

أولهما أن صحة النية لا تكفي لقبول العمل بل لا بد من صلاح العمل، وفي سياق هذه السورة نقول **إن الجهاد في سبيل الله لا تكفي فيه النية بل لا بد من صحة العمل بموافقة هدي النبي صلى الله عليه وسلم وسنته في جهاد الكفار وقتالهم،**

والثاني أن المؤمن قد يصدر منه عملٌ صالح وعملٌ سيء فلا يخرجه ذلك عن اسم الإيمان، وفي سياق موضوع السورة نقول **إن المجاهدين إذا صدر منهم خطأٌ ما، وكان عملٌ من أعمالهم على خلاف الهدي النبوي فإن ذلك لا يُخرجهم عن اسم المؤمنين، ولا يلغي صالح أعمالهم، فلا يَحلُّ التبرؤ من المجاهدين لصدور خطأ ما، وإنما نتبرأ من العمل المخالف ونبقى على أصل الموالاة الإيمانية لهم، والنصرة العملية لجهادهم ومقاصدهم السليمة،** فتأمل هذا المعنى فإنه عزيز جداً اليوم، فالمؤمن غير

[20] تفسير الطبري – ١٠/١٧٩

معصوم، والمجاهدون غير معصومين، لكن الحذر الحذر من المرجفين المخَذّلين الذين يتخذون من بعض الأخطاء العملية أو الميدانية ذريعةً للتنفير والتخوين والتخذيل والرمي بالغلو والتطرف والخروج عن الدين، فإن هذا من وسائل الكفار التي دسّوها في قلوب المرجفين من أبناء جلدتنا كي يفرقوا بين المجاهدين وبين الأمة الحاضنة لهم.

وإن من الإسقاطات المعاصرة في سياق هذا العدوان الهمجي على أبناء أمتنا في غزة الإرجاف بالقول بأن المجاهدين لا يمثلون الشعب، ولا يمثلون الحاضنة الشعبية التي هم جزءٌ من نسيجها، ومن تاريخ معاناتها ونضالها ورباطها، فليحذر المؤمنون من هذه الدعاوى التي يراد منها التفريق بين أجزاء الأمة، ويراد منها إبطال روح الجهاد فيه وإطفاء جذوته، خابوا وخسئوا.

ولا بد لنا في هذا المقام من الوقوف على سرٍ عجيب من أسرار هذه السورة المباركة، وهو السر المتمثل في قوله تعالى: (وآمنوا بما نُزّل على محمد وهو الحق من ربهم) بعد ذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات،

قال ابن كثير رحمه الله: "عطفُ خاصٍ على عام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه"[21]،

قلت: في هذا الموضع من أسرار هذه السورة المباركة المندرجة تحت هذا العطف ما يجدر الوقوف عنده، فنقول وبالله التوفيق:

- إن من أسرار هذا الاعتناء بذكر الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والذي أشار إليه ابن كثير رحمه الله بأنه من عطف الخاص على العام التنبيه على قتالٍ خاصٍ من عموم قتال الكفار ألا وهو قتال أهل الكتاب الكفار المحاربين الذين لم يذعنوا للسلم والجزية أو نقضوا عهد الله تعالى فيهم وذمته لهم، **وانظر إلى المتكالبين على أهل الإسلام في غزة اليوم تجدهم اليهود والنصارى، على ما هم عليه من العداوة الدينية فيما بينهم، لتدرك أن كفرهم برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وبرسالته وبشريعته أدعى لجمعهم على حرب الله ورسوله والمؤمنين مما يفرقهم** – وهم في الحقيقة متفرقون كما أخبر الله عنهم – ولكننا نتحدث عن خصوص هذه المرحلة.

[21] تفسير ابن كثير – ٧/٤٠٩

- وإن من أسرار هذا العطف الخاص بذكر الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد ذكر عموم الإيمان، التنبيه على سالف عهد الكفار من أهل الكتاب من اليهود والنصارى في صدّهم عن سبيل الله بمحاربتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدّ الناس عن الإيمان به صداً معنوياً تارة بما يبثونه من شبهاتٍ وافتراءات، وصداً حسياً تارة بما بادروه به من نقض للعهود وإشعالٍ للحروب، لتعلم أن اليهود والنصارى قد جمعوا مع كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم صدّهم عن رسالته، فهذا تنبيهٌ على بقاء أصل هذه العداوة لكل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من بعده، فتأمل هذا جيداً يا من آمنت بمحمد صلى الله عليه وسلم وأحببته وبارزت الدنيا بأسرها في حبه صلوات الله وسلامه عليه.
- إن في التأكيد على ذكر الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم إذاً إشارة إلى أن العداوة الدينية بين المؤمنين وبين أهل الكتاب تعود إلى هذا الجزء من شهادة التوحيد الذي ينكرونه، وأن الحرب قائمة بين كفار أهل الكتاب وبين المؤمنين حتى ينزل عيسى ابن مريم حكماً مقسطاً فيبطل الجزية ولا يقبل ممن يزعم اتّباعه إلا الإسلام، وحتى

يقتل الدجال رأس اليهود وداعيتهم فينقطع دابرهم، وبهذا يتبين لك بطلان مزاعم توحيد الديانات الإبراهيمية ويتبين لك زيف الميثاق الإبراهيمي المنسوب زوراً وبهتاناً إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وقد فنّدنا هذه العقيدة الباطلة في الرسالة الموسومة "الديانة الإبراهيمية بيضاء نقية"[22] فليرجع إليها، ويؤكد لك هذا الارتباط بين الصد المعنوي عن دين الله بهذه الديانة المحرفة الباطلة وبين الصد العملي عن دين الله بفتنة المسلمين بهذا العدوان الصهيوني الهمجي المتوحش على المسلمين في غزة تسارع المنظِّرين من المراكز الفكرية الغربية إلى التخوف من تأثير هذه العدوان الصهيوني الهمجي على مسيرة الاتفاقية الإبراهيمية المزعومة في حاضنة العرب والإسلام، فتنبه.

ثم بيّنت السورة أن لكلٍ من الفريقين سبيله في العمل بما يعتقده من كفرٍ بالله يستوجب جهادهم، وإيمان بالله يستوجب نصرتهم، فأبطل الله أعمال الكفار بصدهم عن سبيل الله، تأمل قوله تعالى: (ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل)؛ أي اتبعوا الشيطان، قال الطبري رحمه الله بسنده عن مجاهد:

[22] http://saaid.org/book/open.php?cat=1&book=19686

يقول: (ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل) قال: الباطل: الشيطان"[23]، فكل صدٍ عن سبيل الله إنما هو من الشيطان، وأئمة الكفر وأعوانهم إنما يأتمرون بأمره، ويخضعون لوساوسه، ويصدون المؤمنين عن دينهم طاعةً له واتباعاً لسبيله.

وأما سبيل المؤمنين فهو الصراط المستقيم، فهذا هو الحق من ربهم الذي جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكفّرَ الله عنهم سيئاتهم وأصلح أحوالهم باتباعهم الحق "وهو محمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به من عند ربه من النور والبرهان"[24].

وجاءت الخاتمة الفاصلة في هذا المشهد القرآني:(كذلك يضرب الله للناس أمثالهم)؛ قال الطبري: "يقول عز وجل: **كما بينت لكم أيها الناس فعلي بفريق الكفر والإيمان، كذلك نمثّل للناس ونشبّه لهم الأشياء، فنلحق بكل قومٍ من الأمثال أشكالاً**"[25].

هما فريقان إذاً؛ فريق أولياء الرحمن وفريق أولياء الشيطان، ولئن أعلن فريق الإيمان في غزة إيمانه بالله وتابعيته لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وأعلن فريق الكفر إيمانه بالشيطان وتابعيته لعبادة العجل والصلبان، فليختر

---

[23] تفسير الطبري- ١٠/١٨٠
[24] تفسير الطبري – ١٠/١٨٠
[25] تفسير الطبري- ١٠/١٨١

كلٌ منا بقلبه ولسانه ويده أيَّ الفريقين ينحاز إليه، ولتعلم الدنيا بأسرها أن مشروع إبادة المسلمين في غزة حاصله اصطفاء الله تعالى شهداءه ممن أراد أن يتخذ شهداء، وإمداد غزة وفلسطين والقدس والمسجد الأقصى بملايين آخرين من المؤمنين الموحدين الحاملين أرواحهم على أكفِّ الشهادة، فهذه معركة لا تنقضي بالقضاء على أهل غزة، وإنما تنقضي بقول الله تعالى: (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم)؛ فلئن كان مِن عبدة الطاغوت ممن لعنه الله وغضب عليه مداد من أولياء الشيطان، فإن لأهل غزة من المؤمنين المجاهدين المتابعين لمحمد صلى الله عليه وسلم مداداً من الله بجنده التي لا يعلمها إلا هو، ومن أُمّةٍ تكاثر لتدفع بأولادها في صفوف الجهاد والاستشهاد ما شاء الله أن يصطفي منها ويتخذ منهم شهداء، والحرب سجال، والأيام دول، ويومئذ يفرح المؤمنون، بنصر الله...

بقيت مسألةٌ في غاية الأهمية وهي مسألة متفرعة على هذا المشهد القرآني الذي تقدم بيان معالمه من جهة صفة الكفر الموجبة للقتال أعني صفة الحرابة مع الكفر؛ وهي تتعلق بحكم المحتل "الإسرائيلي" أي من يحمل الجنسية الإسرائيلية في عصرنا هذا من اليهود، والفرق بينه وبين اليهودي أو النصراني غير المحارب الذي له ما له من الأمان والعهد والذمة بحسب

حاله كما هو مبسوط في أحكام أهل الكتاب وأهل الذمة، **أما من يحمل الجنسية الإسرائيلية اليوم اختياراً من الكفار يهودياً كان أم نصرانياً أم مرتداً أم كافراً غير كتابي فإنه كافرٌ محاربٌ يُقاتل أينما ثُقف، ويُحصر أينما حلّ، ويُقعد له كل مرصد،** ويخرج بقولنا اختياراً من فُرضت عليه الجنسية الإسرائيلية من مسلمي فلسطين المحتلة ومن أهل الكتاب من أهلها الذين هم في أصل عقد الذمة بموجب العهدة العمرية إلا من نقض عقد الإسلام أو الذمة فأعان على المسلمين وتجسس لصالح العدو، ودل عليهم كما هو مبسوط في مظانه من أحكام الجاسوس المسلم وناقض العهد من أهل الذمة. فلا يخدعنّك إطلاق اسم "مدنيين" على المستوطنين فإن مجرد وجودهم على أرض فلسطين صيالٌ وعدوانٌ وحرب، ولا نقف إلا عند ما أوقفنا عليه النص من حرمة قتل الأطفال والنساء والشيوخ والمعتزلين في الصوامع والبِيع فلا يحل استهدافهم ابتداءً، هذا **مع ضرورة التمييز بين امرأةٍ حافظت على عصمتها بأنوثتها فلم تحمل سلاحاً ولم تشارك برأي ولم تفتِن بشهوة، أما من حملت السلاح وكانت في عديد جنود الاحتياط أو كانت تعين برأيٍ أو علمٍ أو قلمٍ أو فتنة شهوانيةٍ أو إعلامٍ مرئي أو مسموع – كما هو دأب ما يسمى اليوم بالمؤثرات على وسائط**

التواصل الشبكي ونحو ذلك – فهذا كله مما يدخل في معنى الحرابة التي تسقط العصمة بوصف الأنوثة، فلا تأخذنّك سذاجة أيها المسلم ولا يفتننك الملبّسون عن الحق.

ثانياً: معالم النزال العسكري والسياسة الشرعية للجهاد:

إن الجهاد في سبيل الله عبادةٌ ووسيلة؛

- فهو من حيث **كونه عبادة** يحتاج إلى نية صحيحة واتباعٍ موافق لسنة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهو بهذا الوصف عملٌ مأجور بإذن الله حقق المجاهد به ثمرة الجهاد العسكرية أم لم يحققها،
- وهو من حيث **كونه وسيلة** يحتاج إلى سياسةٍ شرعيةٍ حكيمةٍ تنظر في مقاصد الإسلام من القتال ومصالح الأمة على اختلاف الأحوال،

فالمجاهدون بالمعنى الأول يتعبدون لله بنفس جهادهم وقتالهم وإنفاقهم فغاية النصح لهم تذكيرهم بإخلاص النية وتوجيههم إلى إصلاح العمل، والمجاهدون بالمعنى الثاني يتعبدون لله بتحقيق مقاصد الشرع الكبرى ومصالح الأمة العظمى فقد يستلزم ذلك قتالاً في بعض الأحوال، وإمساكاً

عن القتال في أحوال أخرى، وعلى الأمة أن تحسن الظن بصالح أمرائها وقادتها الميدانيين في تلك السياسة ما لم يدل الدليل على إتيانهم بخيانة أو تضييع للأمانة معاذ الله، فغاية النصح لأمراء الجهاد إعانتهم بالرأي والمشورة ونصرتهم والتخذيل عنهم والدعاء لهم واستنفار كل ما يمكن لنصرتهم نصرةً معنوية ونصرة حسية.

فلنتدبر إذاً هذه الآيات في المشهد القرآني التالي من مشاهد سورة القتال:

قال الله تعالى:(**فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ. سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ. وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ. يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ. وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ. ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ**)[26]

فالمسألة الأولى في هذا المشهد القرآني مسألة تنوع التصرفات في قتال الكفار وهو على أربعة أوجه: القتل، والأسر، والمنّ، والفداء.

[26] سورة محمد – الآيات ٤-٩

- أما **القتل** وهو في الآية (ضرب الرقاب) فغايته الإثخان في العدو كسراً لشوكته وتحطيماً لمعنوياته،
- وأما **الأسر** وهو في الآية (فشدوا الوثاق) فغايته تمكين المسلمين من المساومة على ما فيه مصلحة للمسلمين بعد أن تضع الحرب أوزارها سواء أكان بضرب الرق (أو الحبس في زماننا) أو غيره مما يأتي من المن والفداء،
- وأما **المنّ** وهو في الآية (فإما منّاً) وهو تحرير الأسرى دون فداء فغايته التلطف بالدعوة لمن يُرجى إسلامه وتُؤمن غائلته،
- وأما **الفداء** وهو في الآية (وإما فداءً) فهو تحرير الأسرى بمقابل كأن يفادى أسرى المسلمين بأسرى الكافرين.

قال القرطبي رحمه الله: (حتى إذا أثخنتموهم) أي أكثرتم القتل...

وقال: (فشدوا الوثاق) أي إذا أسرتموهم...

وقال: (فإما منّاً) عليهم بالإطلاق من غير فدية (وإما فداءً)"[27]، وقال الطبري رحمه الله: "والصواب من القول عندنا في ذلك أن الآية محكمة غير

[27] تفسير القرطبي- ١٦/١٩٣

منسوخة"[28]، وهو اختيار القرطبي[29] وقول الأكثرين كما ذكره ابن كثير[30] رحم الله الجميع.

وإن التخيُّر بين هذه التصرفات يعود إلى النظر فيما هو أصلح للمسلمين وللدعوة الإسلامية، وهو روح السياسة الشرعية، ولا شك أن المجاهدين في غزة قد وُفقوا أيما توفيق في شد وثاق من استطاعوا من الكفار المحاربين تأويلاً للآية، وأخذاً بما تيسر من الأسباب التي تقوي موقفهم الميداني أثناء الحرب والتفاوضي حين تضع الحرب أوزارها ويطفئ الله تعالى حرب اليهود بإذنه وحكمته.

وإن من الخذلان والسعي في هوى أولياء الشيطان أن يسمى الأسرى من الكفار المحاربين "رهائن" كما هو لسان الكفار المحاربين ولسان أوليائهم، تلبيساً على الناس وإيهاماً لهم بأن أفعال المجاهدين في الأسر والقتال أفعال عصابات لا أفعال قتال وجهاد مشروع، بل يجب على المسلمين أن يسمّوا الأشياء بأسمائها الشرعية حتى يتبين حكم كل منها ويستبين الحق للناس ولا يساء الظن بالمجاهدين الذين يصدون عن الأمة صيال الكفار المحاربين والصهاينة المجرمين.

---

[28] تفسير الطبري – ١٠/١٨٣

[29] تفسير القرطبي – ١٦/١٩٥

[30] تفسير ابن كثير – ٧/٤١١

المسألة الثانية: قتالٌ حتى لا شرك:

وأما قوله تعالى: (**حتى تضع الحرب أوزارها**)، ففسره الطبري تفسيراً مجملاً بقوله: "حتى تضع الحرب آثامها وأثقال أهلها المشركين بالله بأن يتوبوا إلى الله من شركهم، فيؤمنوا بالله وبرسوله، ويطيعوه في أمره ونهيه، فذلك وضع الحرب أوزارها"[31]، ثم أسند إلى مجاهد قوله: (حتى تضع الحرب أوزارها) قال: حتى يخرج عيسى ابن مريم، فيُسلم كل يهودي ونصراني وصاحب ملة"[32]، ذكره القرطبي عن مجاهد وابن جبير[33]، وذكره ابن كثير عن مجاهد وقال: "وكأنه أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال"[34]،

قلت: وهذا المعنى مطابق لما تقدم بيانه من الوقوف على بعض أسرار عطف الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم على الإيمان العام، والله الموفق.

وإن في ملاحظة هذا المعنى – أي استمرار الحرب حتى يخرج عيسى عليه السلام ويقاتل آخرُ هذه الأمة الدجالَ فلا يبق شرك- سلوى لنا جميعاً ممن لم يكتب لنا شهود أرض ملحمة غزة الجهادية، فإنه كما كان لمن لم

---

[31] تفسير الطبري- ١٠/١٨٣

[32] تفسير الطبري- ١٠/١٨٤

[33] تفسير القرطبي- ١٦/١٩٥

[34] تفسير ابن كثير – ٤١١-٤١٢/٧

يشهد بدراً من الصحابة سلوى في شهود أُحد والخندق وخيبر وفتح مكة ومؤتة وتبوك، فإن لنا مَن لم نشهد غزة – عن غير نفاق أو قعودٍ أو تخلفٍ– من وراء غزة غزوات، ومن بعد هذه الجولة صولات وجولات، حتى تضع الحرب أوزارها، فيا من تبكي بحرقة لتعذر اللحاق بإخوتك المجاهدين قم وأعد العدة كما أمر وأحب الله رب العالمين، وتمنَّ الشهادة بصدق عسى الله أن يستعملك فيما يحب وتحب، وعسى الله تعالى أن يكتب لك من الأجر مثل إخوانك المجاهدين بصدق العذر والنية، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في غزاة فقال: "إن أقواماً في المدينة خلفنا، ما سلكنا شِعباً ولا وادياً إلا وهم معنا، حبسهم العذر"[35]

المسألة الثالثة: حكمة الله في تأجيل للنصر:

وهذه مسألة مهمة جداً، يفتتن بها الكثيرون من المسلمين الغيورين على إخوانهم المسلمين وما يتعرضون له من كرب وعدوان وهمجية وتوحش، وهي مسألة نذكرها على سبيل حكاية الشبهة أدباً مع الله عز وجل وهي مسألة "لماذا يحصل هذا؟"؛ ونتدبر جواب الشبهة وقمعها في هذا المشهد

[35] صحيح البخاري – حديث ٢٨٣٩

القرآني العجيب: (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوَا بعضكم ببعض والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضلّ أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم. ويُدخلهم الجنّة عرّفها لهم)،

قال ابن كثير رحمه الله: " (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) أي: هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبةٍ ونَكالٍ من عنده، (ولكن ليبلوا بعضكم ببعض) أي: ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم ويبلو أخباركم"[36]،

وقال الطبري رحمه الله: "ولو يشاء ربكم ويريد لانتصر من هؤلاء المشركين الذين بيّن هذا الحكم فيهم بعقوبةٍ منه عاجلة، وكفاكم ذلك كله، ولكنه تعالى ذِكره كَرِه الانتصار منهم وعقوبتهم عاجلاً إلا بأيديكم أيها المؤمنون (ليبلوا بعضكم ببعض) يقول: ليختبركم بهم"[37] ،

قلت: فهنا أمران متعلقان بحكمة الله تعالى في تأخير معاجلتهم بعذاب من عنده؛

- أولهما اختبار المؤمنين وامتحانهم بجهاد الكافرين،

[36] تفسير ابن كثير – ٧/٤١٣

[37] تفسير الطبري- ١٠/١٨٤

- وثانيهما اختيار الله تعالى عباده المؤمنين واصطفاؤهم ليكون عذاب الكافرين المحاربين بأيديهم.

ويترتب على هاتين الحكمتين أثران عظيمان:

- أولهما الصبر على هذا الاختبار وعدم استبطاء النصر،
- والثاني مبادرة المسلمين لتعاطي أسباب اصطفاء الله إياهم لقتال الكفار المحاربين،

ويؤكد هذا المعنى الأخير القراءة التي اختارها الطبري في قول الله تعالى (والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) حيث ذكر الطبري قراءة (والذين قاتلوا) أي حاربوا المشركين، ثم قال:" فتأويل الكلام : والذين قاتلوا منكم أيها المؤمنون أعداء الله من الكفار في دين الله وفي نصرة ما بعث به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم من الهدى، فجاهدوهم في ذلك (فلن يضل أعمالَهم) فلن يجعل الله أعمالهم التي عملوها في الدنيا ضلالاً عليهم كما أضل أعمال الكفار"[38].

قلت: فالذي يظهر من هذا أن على المؤمنين –إن هم أرادوا النجاح في هذا الاختبار – أن يبادروا إلى قتال من يستحق القتال من الكفار المحاربين،

[38] تفسير الطبري – ١٠/١٨٥

ولا يكونوا من القاعدين الخوالف عن جهاد أعداء الله، فإن الكفار المحاربين المعتدين على المؤمنين لا يخرج حال المؤمنين معهم عن أن يكون لهم بهم قوة أو لا؛

فإن كان للمؤمنين بالكافرين قوة فأجدر أن يحاربوهم ليكون عذاب الكافرين بأيدي المؤمنين وفق مشيئة الله الشرعية،

وإن لم يكن لهم بالكفار المحاربين قوة فإنهم مقتولون لا محالة، ففيم الضعف والخور، فليقاتلوا وليقتلوا ما استطاعوا، فإن قتال الكافرين لهم عملٌ ضالٌّ وإن غلبوا على المؤمنين، وإن قتال المؤمنين للكافرين عمل صالح غير ضال بل فيه – كما يأتي – الهداية والصلاح لهم في الدنيا والآخرة.

وإن الناظر إلى حصار المسلمين في غزة اليوم وخذلان المخذلين لهم وإعانة عدو الله على حصرهم وقتلهم وإبادتهم ليدرك أن الهداية والصلاح كله في قتال أعداء الله المحاربين، وأن الخسران كل الخسران في ترك قتالهم وحربهم وهم موقنون أنهم مقتولون لا محالة. أما المرجفون الذين ينكرون على المجاهدين قتال أعداء الله، ويحملونهم مسؤولية المجازر الهمجية في المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، فسيأتي الحديث عنهم في آيات النفاق التالية من هذه السورة المباركة إن شاء الله.

والحاصل أن قتال أعداء الله الكفار المحاربين مقصدٌ شرعي صحيحٌ صريح، ومن أراد أن يتفذلك على المجاهدين في فلسطين، ويتهمهم بتعريض الناس للهلاك فهو أهلكهم، لأن مسلمي فلسطين جزء من الأمة الإسلامية، ولن تفنى الأمة بفنائهم، ولأن واجب الأمة الإسلامية لو كانت حريصة على صون الناس من الهلاك أن ينفروا لنجدتهم ونصرتهم بالسلاح والمال والعتاد والرجال، **أما تخلفٌ عن القتال، وتخذيلٌ عن النزال، فليس مما جاء في كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولو وجب ترك القتال لخوف الفناء لما حلّ للمؤمنين قتالٌ في بدر**، فقد صحّ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض"[39] الحديث، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرح أنه بموازين الحساب وأسباب الدنيا الملموسة فإن فريق المؤمنين هالك في مقابل فريق المشركين ما لم يؤته الله

[39] صحيح مسلم – حديث ١٧٦٣

وعده، فهل كان هذا الحساب مبرراً لترك القتال بحجة الخوف على المسلمين والحفاظ عليهم؟

بقيت مسألة مهمة تحت باب استبطاء النصر والتدبر في بعض حكم الله عز وجل في الإملاء للكافرين في توحشهم وتنكيلهم بالمسلمين؛ ونتدبر بعض هذه المعاني في صورة الحرب الطاحنة على أهل الإسلام في غزة من باب التطبيق العملي لبعض هذه المعاني:

لقد نشأ جيلٌ من المسلمين في العقدين الأخيرين بعيدين عن تاريخ الصراع مع عصابة الصهيونية في أرض فلسطين، أرض الإسراء، أرض بيت المقدس، لم يدرس هذا الجيل شيئاً ولم يسمع شيئاً في مناهج المدارس المخدرة المشوهة عن مجزرة دير ياسين، وكفر قاسم، ومجازر حيفا والقدس، ومجزرة صبرا وشاتيلا، ومجازر جنين والشجاعية والحرم الإبراهيمي، ومجازر غزة المتجددة، فضلاً عن الحروب النظامية التي احتلت بها القدس والمسجد الأقصى، وغيرها مما أوجد لدى هذا الجيل حالةً من العزلة الشعورية عن تاريخ هذا الاحتلال الهمجي يهيئها لقبول مؤامرات التطبيع مع العدو الصهيوني الغاشم، بل ويستنكر المعارضين لها، حتى جاءت هذه المجازر العدوانية الهمجية الهوجاء على مرأى ومسمع ودعم من العالم الصليبي

الحاقد، لتوقظ الغافلين، وتعلم الجاهلين، وتميز أصحاب القلوب الحية من الميتين؛ لقد أعادت هذه الحرب المسلمين إلى عام ١٩٤٨ بعد أن كادت تضمحل من ذاكرة الأمة وضميرها جذور هذه الهمجية الصهيونية، وبعد أن غفلت أو تغافلت عن مكر هذا العدو وكيده ودناءته.

كما أن إملاء الله تعالى لعصابة الصهيونية الفاجرة في عدوانها على العزّل من النساء والأطفال والشيوخ بل وعلى أصحاب الحق المدافعين عن حقهم الدافعين للصائل من المجرمين عن أرضهم وحرماتهم، إن إملاء الله تعالى لهم على هذا النحو قد جرّد كامل منظومة القيم الغربية المتشدقة بالإنسانية والخيرية وحقوق الإنسان وغيره من الكذب الفاضح وهم يريدون فرض هذا الأنموذج الممسوخ – دولة الكيان الصهيوني الغاصب – على بلاد المسلمين أنموذجاً يُحتذى فيما يسمى بالديمقراطية التي لا يزال بعض المخدوعين من أمتنا يهرولون وراء سرابها وهم يُقتلون ويصطلون بلهيبها، بل إن رمي الصليبية والصهيونية –على ما بينهما من عداء ديني– رميهم لنا أمة الإسلام عن قوس واحدة يبين بطلان ما يزعمونه من التسامح الديني، وإدارة الخد الأيسر لمن لطم خدك الأيمن، نعم إن هذه الحرب هي

الفاضحة، وهي المعرِّية، وهي المميزة لكلٍ من الفسطاطين؛ فسطاط أهل الحق، وفسطاط أهل الضلال.

وإن من الحكم العظيمة بيان خلود هذه الرسالة وصلاحها لكل زمان ومكان، فلا يحسبن مسلمٌ اليوم أن قصص ابتلاءات المؤمنين من أهل الأمم السابقة وأتباع الرسل والأنبياء بحق، لا يحسبنها مجرد وقائع تاريخية تُحكى تسليةً، وتسرد سرداً أشبه بالأساطير، كلا، بل هي نماذج من اصطفاء الله تعالى مَن أراد أن يتخذ من شهداء هذه الأمة، وستتلوها نماذج اليوم وغداً وبعد غد، في غزة وفلسطين، في الأندلس والصين، في أفغانستان والشام، وفي كل بقعة من بقاع الأرض، لتكون شاهدة على الدوام بخلود هذه الرسالة، وخلود علاقة التوحيد الخالص بين الله تعالى وبين عباده المؤمنين الذين واثقوا الله على الوفاء بالعهد ما استطاعوا، يرخصون في سبيل ذلك النفس والمال والأهل والأولاد، وهل تصلح هذه العلاقة وهذه المواثيق نصوصاً نظرية لا ترجمان لها في أرض الواقع، كلا، بل لا تزال هذه الأمة تقدم شهداءها، ولا يزال الله تعالى يبتليها بأعدائها تمحيصاً لهذا القلوب وتصفية لهذه العقيدة ووفاءً بهذه البيعة.

ونحن نزيد هذه المعاني وضوحاً من خلال التدبر في بقية الآيات في هذا الموضع إن شاء الله.

المسألة الرابعة: القتل في سبيل الله هداية وصلاح:

قال تعالى: (والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرّفها لهم)؛

تقدمت معنا الإشارة إلى بعض أوجه القراءة التي ذكرها الإمام الطبري في قوله تعالى (والذين قُتلوا في سبيل الله) وحاصلها أربعة أوجه هي:

- (والذين قاتَلوا) أي حاربوا
- (والذين قُتِّلوا) بضم القاف وتشديد التاء أي أكثر فيهم المشركون القتل،
- (والذين قَتَلوا) بفتح القاف والتاء أي قتلوا المشركين،
- (والذين قُتِلوا) بضم القاف وتخفيف التاء، أي قتلهم المشركون دون بيان المبالغة في القتل.

وهذه الأوجه كلها تفضي معانيها بعضها إلى بعض، وتدل في مجموعها على أن دوران رحى الحرب على أي صورةٍ كانت بالنسبة للمؤمنين

المتلبسين وجهاً أو أكثر من هذه الأوجه فإنهم على هدى وصلاح وخير، لأن الله تعهد أنه سبحانه لن يُضل أعمالهم، قال ابن كثير رحمه الله: "ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثير من المؤمنين قال: (والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) أي: لن يُذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها، ومنهم من يجري عليه عمله في طول برزخه"[40].

ثم بينت الآية صفة هذه الهداية فقال الله عز وجل: (سيهديهم) قال ابن كثير: "أي إلى الجنة"[41]، وقال الطبري:" سيوفق الله تعالى ذِكره للعمل بما يرضى ويحب هؤلاء الذين قاتلوا في سبيله"[42]، قلت: هذا على اختياره لوجه القراءة كما تقدم، وهذه المعاني لكها مجتمعة غير متعارضة وبالله التوفيق، فتفسير ابن كثير بالهداية للجنة لمن فاز بالشهادة في سبيل الله، وتفسير الطبري رحمه الله لمن قاتل الكفار فكتب الله له النصر فإنه بقتاله الكفار المحاربين ونصرته لهذا الدين يوفقه الله تعالى في قابل الأيام للعمل بما يحب ويرضى، (ويصلح بالهم) أي يصلح حالهم في الدنيا والآخرة[43]. وحاصل هذه الهداية والإصلاح في نهاية المطاف الفوز العظيم بجنات

---

[40] تفسير ابن كثير – ٧/٤١٣
[41] تفسير ابن كثير – ٧/٤١٤
[42] تفسير الطبري – ١٠/١٨٥
[43] تفسير الطبري- ١٠/١٨٥

النعيم: (ويدخلهم الجنة عرّفها لهم)، أي بيّنها لهم وهداهم إليهم، وطيّبها لهم – ذكر هذا المعني الأخير القرطبي عن ابن عباس[44].

وفي هذا الموضع من الآية سرٌ عجيب، أعني قوله تعالى (عرّفها لهم) ويتبين هذا السر في الموافقة العجيبة بين تعريف الله تعالى المجاهدين في سبيله بالجنة بتطيبه إياها لهم وبرائحتها الزكية على القول الذي ذكره القرطبي عن ابن عباس، وبين حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما مِن مَكلومٍ يُكلَم في الله إلا جاء يوم القيامة وكَلْمُهُ يَدمى؛ اللون لون الدم، والريح ريح مسك"[45]،

قلت: والكلم هو الجرح، والمكلوم هو المجروح في سبيل الله المقتول بجرحه، فإنه يُبعث يوم القيامة على حاله، جرحُه يَثعبُ دماً وريحه تفوح مِسكاً، فتأمل هذه الموافقة العجيبة والسر البديع في موافقة قول الله عز وجل عن إدخال المقتولين في سبيله في الجنة وقد بينها لهم بطيب رائحتها وزكاء عَرفها يهتدون إليها بذلك على هذا الوجه في المعنى، وبين علامة الشهداء المكلومين المجروحين في سبيل الله يوم القيامة حيث يعرفون بريح دمائهم التي تثعب من جراحاتهم ريح مسك طيب، فتأمل هذه الموافقة البديعة،

---

[44] تفسير القرطبي- ١٦/١٩٧

[45] صحيح البخاري – حديث ٥٥٣٣

لتدرك أن من وراء المحنة منحةً، وأن من وراء ما يشاهده الناس من القتل والجرح والنكال مشهداً آخر يهدي الله تعالى إليه مَن آمن به وأرخص في ذات الله كل شيء نيةً وصبراً واحتساباً لمن لم يختر المباشرة بالقتال كما هو حال الذين يتعرضون للقصف الهمجي بحمم القذائف والمتفجرات، ونيةً وإقداماً وقتالاً كما هو حال المجاهدين جهاد دفعٍ أو طلب كلٌ حسب حاله، فمقابل مشهد الجراحات والدماء مشهد الجنات التي أعدها الله تعالى للمقاتلين المقتولين في سبيله، وفي مقابل ريح المسك من دمائهم الزكية ريح الجنة وعرفها الطيب يهتدون به إلى منازلهم في الجنة، بل إن هذا المشهد ليكتمل روعةً ببيان اقتضاء الله تعالى للمظلومين حقهم ممن ظلمهم وبغى واعتدى عليهم، تأمل حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يخلص المؤمنون من النار فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذّبوا ونُقّوا أذن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا"[46]، قلت: وهذه المقاصة في المظالم بين المؤمنين، فما بالك بمن ظلم من الكافرين،

[46] صحيح البخاري – حديث ٦٥٣٥

وهنا تنبيه للمؤمنين الذين يظلمون المجاهدين اليوم في غزة وفلسطين وغيرها فيلمزونهم بالتغرير بالمسلمين، ويخذلونهم ويُسلِمونهم للكافرين، ويشاركون في حصارهم ويقصرون عن نصرتهم بكل ما أوتوا، فليحذر هؤلاء جميعاً من المقاصة عند القنطرة، والويل الويل لمن كان قد هلك قبلها ممن كتب الله في قلوبهم النفاق فألحقهم بإخوانهم الكفار.

المسألة الخامسة: أسباب النصر الكونية والشرعية:

تقدمت بعض معالم النزال العسكري الميداني عند اللقاء – أي التحام الصفوف- ومُخرَجات هذا الالتحام من أسرٍ بعد إثخانٍ في العدو، وقتلٍ وتقتيل بين الفريقين، ولا شك أن الإشارة إلى بعض معالم التحام الصفوف ومقاتلة الكفار المحاربين، والإثخان فيهم قتلاً، وكسر شوكتهم أسراً، لا شك أن هذا كله يتعلق بتعاطي ما تيسر من الأسباب المادية الكونية استعداداً للقتال، ولا تبرأ ذمة المسلمين بترك شيءٍ مقدور عليه من هذه الأسباب إلا بتعاطيه، غير أن هذه السورة التي حررت مناط العداوة وسياق مقاتلة أعداء الله وأعداء الرسول صلى الله عليه وسلم وأعداء المؤمنين مناطاً عقدياً، وجعلت قتال الكفار المحاربين قتالاً بين فريق الهدى وفريق الضلالة،

فريق الحق وفريق الباطل، إن هذه السورة العظيمة قد اعتنت بعد بيان هذه المعالم السببية الكونية بالتنبيه على السبب الحقيقي للنصر، وهو السبب الشرعي الذي صرحت به في قول الله تعالى: (يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)،

قال القرطبي:" أي إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار"[47]،

فتعاطي هذا السبب الشرعي هو الروح التي تحيي جسد الأسباب الكونية بالتوفيق الرباني في علاقةٍ شرطيةٍ بسيطة، كما رواها الطبري عن قتادة قال: (إن تنصروا الله ينصركم) إنه حق على الله أن يعطي من سأله، وينصر من نصره"[48]، نعم؛ إنها علاقة شرطية بسطة، ولكنها علاقة شرطية لازمة، ولهذا قابلتها الآية بالعلاقة العكسية بين الكفار وبين الله عز وجل: (والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم. ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم)؛ قال الطبري: "(والذين كفروا) بالله، فجحدوا توحيده، (فتعساً لهم) يقول: فخزياً لهم وشقاءً وبلاء... (وأضل أعمالهم) يقول: وجعل أعمالهم معمولةً على غير هدىً واستقامة، لأنها عملت في طاعة الشيطان لا في طاعة الرحمن"[49]، وبينت الآية سبب استحقاق الكفار

---

[47] تفسير القرطبي – ١٦/١٩٧

[48] تفسير الطبري – ١٠/١٨٦ والأثر موقوف على قتادة

[49] تفسير الطبري- ١٠/١٨٧

للخزي والإضلال حيث كشفت عن مباينتهم لشرع الله ومناصبتهم دين الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم العداء، فقال تعالى: (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) قال الطبري رحمه الله: "يقول: فأبطل أعمالهم التي عملوها في الدنيا، وذلك عبادتهم الآلهة، لم ينفعهم الله بها في الدنيا ولا في الآخرة، بل أوبقهم بها فأصلاهم سعيراً، وهذا حكم الله جل جلاله في جميع من كفر به من أجناس الأمم كما قال قتادة: في قوله (فتعساً لهم) هي عامة في الكفار"[50].

بقي الكلام على قوله تعالى للمؤمنين بعد أن خاطبهم بشرط النصر وجوابه (إن تنصروا الله ينصركم) وهو قوله (ويثبت أقدامكم) قال القرطبي: "أي عند القتال، وقيل على الإسلام، وقيل: المراد تثبيت القلوب بالأمن، فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب"[51]، قلت: وهذه المعاني كلها يفضي بعضها إلى بعض، غير أن هنا سراً آخر من أسرار هذه السورة، وهو التنبيه على أن المجاهدين في سبيل الله بعد أن يواجهوا أعداء الله بالقتال ويروا منهم البأس والقتل والتقتيل في المسلمين فإنهم يُبتلون بعد ذلك بالمخذّلين الذين يريدون تخذيلهم وثنيهم عن القتال

---

[50] تفسير الطبري باختصار السند عن قتادة – ١٠/١٨٧

[51] تفسير القرطبي – ١٦/١٩٧

بعد أن باشروه، ولا يألون المسلمين خبالاً بتوهين نفوسهم وبث الشك في قلوبهم، فيكون نصر الله للمؤمنين حينئذ بتثبيت أقدامهم عند النزال، غير آبهين بالمثبطين والمخذّلين، فهنا تحذير من بطانة السوء المخذّلة وبشارة بنصر الله وتثبيت الأقدام حتى لا يرتدوا عما هم فيه من مجاهدة الكفار، فتأمل هذا المعنى فإنه عزيز.

المسألة السادسة: سر عجيب آخر من أسرار هذه السورة العظيمة:

إن فيما تقدم من سورة القتال سورة محمد، ملحظاً آخر ينبئ عن مزيد من عجائب ولطائف هذه السورة المباركة، ألا وهي التصريح بالمقابلة الكاملة بين عناصر السورة دون حذفٍ أو تقدير كما قد يجري في مواضع أخرى من القرآن الكريم حيث تذكر صورة وتترك الصورة المقابلة للعهد الذهني أو الاستنباط، وحيث ترد الآية مصرِّحة بمعنى وتحذف ما يتعلق بمقابله لدلالة السياق أو القرائن عليه، ولكننا نرى في سورة القتال هذه التصريح بكل عناصر السورة وأضدادها في مقابلةٍ بديعة بين الذين كفروا والذين آمنوا، بين إضلال الله عمل الكافرين وإصلاح الله عمل المؤمنين، بين ضرب المؤمنين رقاب الكفار المحاربين وتقتيل الكافرين للمؤمنين، بين

المن بالنصر تارة والابتلاء بصولة الكفار تارة، بين الكرامة بالهداية للجنة والخزي والندامة بإحباط العمل دون ذلك، بين نصرة دين الله وكره دين الله، **وكأن التصريح بهذه العناصر المتقابلة يرسم معالم المواجهة الميدانية بين صَفّي القتال صف المؤمنين وصف الكافرين، وكأني بالسورة تنبه على ضرورة استحضار كل هذه الجزئيات عند التحام الصفوف واحتدام القتال، لأن هذه العناصر الإيمانية وأضدادها الكفرية هي مقومات الفريقين بشِقّيها الحسي والمعنوي**، فكان للتصريح بها جميعاً مزيد اهتمام وعناية بالتنبيه عليها وعلى أهمية تعهدها جميعاً بالغرس الإيماني الصالح والتعهد الإيماني الصادق، حتى تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، والله أعلم.

ثالثاً: الاعتبار بمآلات الأمم:

انتقلت السورة بعدئذٍ إلى توبيخ الكفار الذين لم يعتبروا بمشاهد الأمم الكافرة المكذبة قبلهم، وهم كانوا يشاهدون آثار زوالهم فيما يمرون عليه في طرق تجارتهم وسفرهم، والآية وإن كانت خطاباً للكفار فإنها تنبيه وتهييج للمؤمنين على الثبات على إيمانهم وجهادهم حذر السقوط فيما سقط فيه

الكفار المعاصرون لهم والكفار السابقون لهم ممن أهلكهم الله تعالى بجحودهم وتكذيبهم ومعاداتهم رسل الله وأتباعهم المؤمنين.

وإن لهذه الإشارة إلى الأمم الهالكة أثراً عظيماً في قيام الحجة على الكفار، وثبيت أقدام المؤمنين؛ فإن طبيعة النفس البشرية تميل إلى التعلق بالمشاهد والمحسوس، وسرعان ما تغفل عن الغيب ولو اعتقدته ما لم تكن له معززات تعين على استحضار مفرداته والإيمان بحقائقه، فذِكر الله مثلاً إنما شرع حراسة للقلوب عن الغفلة عن شهود خالقها جل في علاه، وإن كانت هذه القلوب تؤمن بالله وتشهد شهادة التوحيد المنجية بإذنه. وإن مشاهد القتال والتحام الصفوف والابتلاء بالقتل والتقتيل مع عدم تكافؤ موازين الأسباب بين الفريقين قد يفتح في القلوب باباً لوساوس الشيطان وشكوكه، فتخور النفوس، وتفتر الهمم، وتتقاعس الأجساد عن نصرة هذا الدين العظيم، فكان من الحكمة أن لفتت السورة الأنظار إلى الاعتبار بمآلات الأمم المكذبة والظالمة التي تولت الشيطان وعادت أولياء الرحمن، فإن في النظر في هذه المآلات عِظةً للقلوب، وشحذاً للهمم، وحِداءً للأجساد أن يترجم ذلك كله في سبيل الله، فيحصل من علم اليقين بمصارع

الأقوام المكذبة عين اليقين بما يجريه الله على أيدي المؤمنين اليوم من عذاب الله وعاجل عقوبته للكفار المحاربين.

تأمل قول الله تعالى في هذه السورة المباركة:

(أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا. ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ)[52]؛ تجد هذا التوبيخ لكفار ومشركي مكة الذين كانوا يرون ما أحل الله تعالى بمن قبلهم من الأمم من عذاب وهلاك، ثم تأمل قول الله تعالى: (وللكافرين أمثالها)؛ قال الطبري عن مجاهد: "مثل ما دُمّرت به القرون الأولى، وعيد من الله لهم"[53]، قلت: إنها معركة متصلة إذاً، وليست مجرد حكاية تحكى للتندر والتفكّه، والسر في اتصال هذه المعركة إلى يومنا هذا وإلى ما يأتي من قابل الأيام في علم الله هو قول الله تعالى: (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم)، قال الطبري في هذا الموضع:" هذا الفعل الذي فعلنا بهذين الفريقين: فريق الإيمان وفريق الكفر، من نصرتنا فريق الإيمان بالله وتثبيتنا أقدامهم، وتدميرنا على فريق الكفر (بأن الله مولى الذين آمنوا) يقول: من أجل أن الله ولي

[52] سورة محمد – الآيات ١٠-١١

[53] تفسير الطبري – ١٠/١٨٨

من آمن به وأطاع رسوله... وقوله (وأن الكافرين لا مولى لهم) يقول: وبأن الكافرين بالله لا ولي لهم ولا ناصر"[54].

ويترتب على هذا المشهد من السورة أمور:

- **أولها** أن على المؤمنين أن يصبروا عند البلاء، فإن من ورائه وإن اشتد نصراً من الله وفتحاً مبيناً، وإن إكسير الصبر هو الإيمان بموالاة الله تعالى للمؤمنين ونصرته سبحانه وتعالى لهم،
- **ثانيها** أن يعتبر المؤمنون بمآلات الأمم السابقة فيزدادوا يقيناً أن الحرب سجال، وأن العاقبة للمتقين، وأن ما يأذن به الله تعالى كوناً من حصول بعض الغلبة للكفار على المؤمنين في بعض المشاهد إنما هو خيرٌ لا ندركه، وحكمةٌ لا تصل إليها عقولنا القاصرة، فليكن التسليم بما نعلم ونؤمن من كمال حكمة الله وقدرته معيناً لنا الرضا بما لا تدركه عقولنا من حكمة الله في جزئيات الأحداث، والله الموفق.
- **ثالثها** أن مشهد الانتصار الحقيقي إنما يتمثل في الاصطفاف مع الحق مع أولياء الرحمن وإن ابتلوا وزُلزلوا زلزالاً شديداً، وأن مشهد

[54] تفسير الطبري – ١٠/١٨٨

الهزيمة والخسران الحقيقي إنما يتمثل في الاصطفاف مع الشيطان وإن كان له ولأوليائه صولة أو جولة، فإنما الأمور بخواتيمها.

وهنا مسألة مهمة تتعلق بالحرب الضروس القائمة في غزة اليوم، وهي مسألة الولاية الإيمانية والولاية الشيطانية؛ فقول الله تعالى (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا) يقول الطبري: "من أجل أن الله ولي من آمن به وأطاع رسوله"[55] صريحٌ في أن معقد الولاء بين المسلمين هو تولي الله ورسوله والمؤمنين، هذا المعقد الذي أشعل فتيله أهل غزة ومجاهدو غزة اليوم فأيقظ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها من غفلتهم؛ فمنهم مَن والى بقلبه على حسرةٍ ألا يجد دون ذلك، ومنهم من والى بقلبه ولسانه على حسرةٍ ألّا يجد دون ذلك، ومنهم من والى بقلبه ولسانه ويده على حسرةٍ ألا تكون له سبعون نفساً يفدي بها في سبيل الله، والله أعلم بمن حبسه العذر عما يود من نصرة إخوانه، وفي مقابل معقد الولاء الإيماني لم يذكر الله تعالى الولاء الشيطاني بل استعاض عن ذلك بذكر العدم فقال: (وأن الكافرين لا مولى لهم) ذلك بأن من اتخذ ولياً من دون الله سواء أكان من شياطين الإنس أم الجن فإنه في الحقيقة لا مولى له، فلا تغرنّك بوارجهم

[55] تفسير الطبري – ١٠/١٨٨

الحربية ولا تغرنك ترسانتهم النووية، ولا يحزنك مرضى القلوب الذين لا همّ لهم إلا ترديد ترنيمتهم المعهودة: مُطرنا بِنَوءِ أمريكا...

إن تحقيق هذا الولاء الإيماني هو الرابط بين أبناء الأمة، وهو السبيل إلى إكمال المسيرة وإن أفنت الحرب إخواننا في غزة، فإن من وراء مسلمي غزة مسلمي الأرض قاطبة، بِعزِّ عزيزٍ، وذُلِّ ذليلٍ، عِزاً يعز به الإسلام وأهله، وذلاً يذل به الكفر وأهله.

رابعاً: حقيقة النصر الثبات على الإيمان:

بعد أن بينت السورة افتراق أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ونبهت على مآلات الأمم العاصية الكافرة الجاحدة في العاجل، بينت السورة مآل المؤمنين ومآل الكفار في الآجل، وإن أهم ما يتراءي لمن تدبر في هذه الآيات أن الله جعل مثوى المؤمنين الجنة ومثوى الكافرين النار، ولم يعلق ذلك بالانتصار في معركة عسكرية، ولا بالغلبة العددية والمادية، ولا بسيادة دولة وزوال أخرى، وإنما جعل دخول الجنة لمن ثبت على الإيمان والعمل الصالح حتى الوفاة، وجعل الخلود في النار لمن أصر على الكفر حتى وفاته، تأمل:

(إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ)[56]،

وإن الدلالة الحاصلة من هذا **أن حقيقة النصر في هذه الدنيا هي الثبات على الإيمان والفوز بالجنة، وأن حقيقة الهزيمة في هذه الدنيا هي الإصرار على الكفر والبوء بالخلود في النار**، ولعمري إن هذا لَهُوَ البلسم الشافي والجواب الكافي لمن تردد في قلبه وتلجلج في صدره سؤال : لماذا يقتّل المؤمنون وهم على الحق، ويغلب عليهم الكافرون وهم على الباطل؛ إن سورة القتال، سورة محمد تعيد تعريف النصر والخسارة في ميزان الله عز وجل، إن النصر هو الثبات على الإيمان ولو كان ثمن هذا الثبات إزهاق الأنفس وإتلاف الأموال في سبيل الله، وإن الخسارة هي الإصرار على الكفر والجحود والطغيان على الحق وأهله مهما كانت للباطل من صولة وجولة، وانظر كيف وصف الله الكفار بأنهم يتمتعون في هذه الدنيا في الوقت الذي لا ينعم فيه المؤمن بمثل ما ينعم به الكافر، ويأكلون كما تأكل البهائم وظيفةً حيوانية محضة لا تفكُّر فيها ولا عبادة ولا نظر في

[56] سورة محمد – الآيات١١-١٢

مآل ولا عاقبة، فيا له من بلسمٍ شافي، ويا له من ترياق يقي العبد المؤمن به نفسه من شبهات الكفر ووساوس الشيطان.

وحيث إن القرآن الكريم كتابٌ سماويٌ ربّاني يرسم للناس منهاج حياةٍ يريد الله تعالى لهم أن يؤمنوا به عقيدةً، ويلتزموه عبادةً، ويطبقوه حقيقةً عمليةً ملموسةً يعيشونها في ليلهم ونهارهم، حِلّهم وترحالهم، فقد يسر الله تعالى لهم هذا التطبيق بحيث يطيقونه ضمن حدود الطاقة البشرية مع تفاوتٍ بين آحادهم، فقد جعل الله تعالى للناس في هذا القرآن قدوةً عمليةً تبين لهم إمكان التزام هذه العقيدة وإمكان هذا التشريع، وبيّن للناس على يد رسله وأنبيائه أجناس الابتلاءات التي يُمتحنون بها ويُمحّصون بها، كي يكون ذلك لهم نبراساً عملياً وسلوى عمّا يتعرضون له من ألوان المحن والابتلاءات، فإذا نظر المؤمن إلى شيءٍ مما يبتليه الله تعالى به، ثم استحضر أن قدوته وأسوته في هذا الدين وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ابتلي بجنس هذا الابتلاء، بل وبأشد ما يكون من جنس هذا الابتلاء وغيره، سكنت نفسه إلى ما اختار الله، واطمأنت بالإيمان بأقدار الله، ولم تتردد في اعتقاد أن ما اختاره الله تعالى لعبده المؤمن هو خيرٌ له، وإن كان ظاهره شدة

وأذي، كيف وقد ابتُلي النبي صلى الله عليه وسلم وهو أحبُّ خلق الله إلى الله بأشد مما أوذي فيه عبدٌ من عباد الله المؤمنين بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبهذا يتبين لك جلال الآية التالية في هذا الموضع من سورة القتال، سورة محمد صلى الله عليه وسلم، ويظهر لك سرٌ عجيب آخر من أسرار هذه السورة والتناسق البديع بين تسميتها بسورة محمد وسورة القتال، حيث قال الله تعالى:(**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ**)[57]؛

نعم، إن قدوة الأمة في الصبر على ابتلاءات الحروب والقتال والقتل والتهجير والإخراج من الديار هو قائد هذه الأمة ورسولها وإمام المجاهدين فيها صلوات الله وسلامه عليه، وعند هذا النظر تهون الابتلاءات كلها في سبيل الله، وعند هذا الموقف يفيض القلب حباً لله أن اختار للعبد من جنس الابتلاء ما اختاره لصفيّه من خلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويفيض القلب حباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يعاين شيئاً يسيراً مما كابده الرسول صلى الله عليه وسلم من المشقة والشدة في سبيل تبليغ هذا الدين لنا، كي ينجينا الله تعالى به من النار، وعند هذا يهون

[57] سورة محمد- الآية ١٣

كل ابتلاء، وعند هذا يكون لسان حال من أُخرج منا من داره: لقد أُخرج من هو خير منا من داره في سبيل هذا الدين، ويكون لسان حال من قوتل فقُتل أو قُتل مِن أهله: لقد قوتل مَن هو خير منا في سبيل هذا الدين وكان له من الشهادة في سبيل الله أوفر نصيب.

والأمر البديع الآخر أن الله تعالى قد جعل لنا معاشر المؤمنين هذه السلوى من جنس ما طيّب الله تعالى به نفس رسوله صلى الله عليه وسلم، قال الطبري رحمه الله: (يقول تعالى ذكره: وكم يا محمد من قرية (هي أشد قوة من قريتك) يقول: أهلها أشد بأساً، وأكثر جمعاً، وأعدُّ عديداً من أهل قريتك، وهي مكة، وأخرج الخبر عن القرية والمراد به أهلها"[58]، قال تعالى: (أهلكناهم فلا ناصر لهم)، قال ابن كثير : "وهذا تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد المرسلين وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى؟ فإن رفع عن كثير منهم العقوبة في الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفر على الكافرين به في

[58] تفسير الطبري – ١٠/١٨٩

معادهم (**يُضاعَف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون**)[59][60]؛ قلت: وهذا تنبيه على ما يكون في تأجيل العقوبة عن الكفار المعتدين من حكمة الله تعالى كبيان فضل نبي الرحمة، أو رجاء إسلام هؤلاء الكفار أو ذراريهم، أو محض مضاعفة العذاب لهم في الآخرة، وعدم انتقاص شيء منها بعاجل عذابٍ يصيبهم في الدنيا، ولله الحكمة البالغة لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

ونحن إذا نظرنا اليوم إلى مصاب إخوتنا في غزة خصوصاً وفي فلسطين وغيرها عموماً من القرى والمدن والدول التي هُجِّر أهلها وأُخرجوا من ديارهم بغير حق، وجدنا في قول الله تعالى: (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ) تذكرةً بمصاب رسولنا صلى الله عليه وسلم بمثل هذا التهجير والإخراج له، وهو خيرٌ منا أجمعين من بلد هي أطيب من بلاد الناس أجمعين، وتنفيساً لما في صدورنا من الضيق، وشفاءً لما في صدورنا من الأسى، حيث نبهت الآية على هذه السنة الشرعية في إهلاك الظلمة والانتصار للمظلومين في حينٍ يشاؤه الله، وعلى صورةٍ يختارها عز وجل.

---

[59] سورة هود – آية ٢٠

[60] تفسير ابن كثير – ٧/٤١٧

خامساً: لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، والأمور بخواتيمها:

إن أسماء الدين العظيمة هي اسم الإيمان والكفر؛ فهذان الاسمان هما مفترق طرق السالكين، فمنهم من يسلك إلى الجنة على صراطٍ مستقيم، ومنهم من يسلك إلى جهنم على سبل وطرق شيطانية متعددة ومتشعبة في أودية الأهواء والضلال. ولما كان الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل، بين الكفار والمؤمنين يستلزم حدوث المواجهة بين الفريقين، وحدوث القتل من الطرفين، في مشهدٍ يبدو متشابهاً بادي الرأي، دافعاً للتساؤل أحياناً: ما الفائدة من هذا القتال إذا كانت النتيجة واحدة وهي القتل أو الموت؟ كان من المناسب أن يأتي الجواب عن هذه المسألة ليقطع دابر الشك، ويعطل ذرائع التردد في بذل الأرواح في سبيل الله، ليخبر الله تعالى عباده أنْ لا سواء، وأن الفرق بين المؤمن الذي يُقتل على الإيمان، والكافر الذي يهلك على الكفر والضلال كالفرق بين الجنة والنار، ففي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه حين حدّث عن غزوة أُحد وكان من السِجال –على مسمعٍ من النبي صلى الله عليه وسلم – بين أبي سفيان – وكان حينها على الشرك – وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "فقال أبو سفيان: يومٌ

بيوم بدر، الأيام دول وإن الحرب سِجال. قال: فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار"[61] الحديث، وفي الصحيح أيضاً لما أشكل على بعض الصحابة بعض بنود صلح الحديبية "فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى"[62].

فالمسألة ليست في القتل والموت، بل إن المسألة هي على أي شيء يُقتل المرء أو يموت، فلنتدبر هذا الموضع من سورة القتال لندرك ذلك بمزيد من التفصيل بإذن الله:

قال الله تعالى: **(أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم. مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ)**[63]؛

[61] مسند الإمام أحمد – حديث ٢٦٠٩ والحديث يطوله في المسند، وذكره ابن كثير في التفسير
[62] صحيح البخاري – حديث ٤٨٤٤
[63] سورة محمد – الآيات ١٤-١٥

قال القرطبي في قوله تعالى (أفمن كان على بيّنة): "الأَلِفُ أَلِف تقرير"[64]، وقال ابن كثير: "يقول تعالى: (أفمن كان على بيّنة من ربه) أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه، بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم، وبما جبله عليه من الفطرة المستقيمة (كمن زُيّن له سوء عمله واتَّبعوا أهواءهم) أي ليس هذا كهذا"[65]،

قلت: فإذا لم يكن المؤمن كالكافر، ولم يكن الموقن لدين الله الثابت عليه كالشاكّ فيه المشرك بالله، لم يكن القتيل في سبيل الله كالقتيل في سبيل الشيطان وزينة الشيطان. ولهذا قال عمر بن الخطاب على مسمع من النبي صلى الله عليه وسلم: "**لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار**"، وهذه لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ابتداءً، ولكل مَن بعده ممن جاهد في سبيل الله اقتداءً، ونحن نعيد وراء أمير المؤمنين عمر فنقول لأهل غزة المسلمين: لا سواء قتلانا من المسلمين في غزة في الجنة بإذن الله، وقتلى الصهاينة المجرمين ومن شايعهم من الصليبيين في النار بإذنه الله"[66].

إن افتراق المؤمن والكافر إذاً هو سر آخر من أسرار هذه السورة، حيث يمثل العقيدة القتالية والروح الجهادية للأمة الإسلامية عامة، ولطائفة

---

[64] تفسير القرطبي- ١٦/٢٠٠

[65] تفسير ابن كثير – ٧/٤١٨

[66] يجوز الشهادة للمسلمين بالجنة في الجملة، لكن لا يجوز تعيين ذاك لفرد من أفراد الأمة إلا بنصٍ صريح.

المجاهدين المرابطين خاصة، وإن هذه العقيدة هي "إكسير الحياة" لهذه الطائفة التي ترى من وراء لهيب القنابل وغبار النقع وبارقة السيوف أمراً آخر، ففي الحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من عبدٍ يموت له عند الله خيرٍ يسرُّه أن يرجع إلى الدنيا، وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسرُّه أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل مرةً أخرى"[67]، ويؤكد هذا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تمنى الشهادة في سبيل الله – وقد نالها صلى الله عليه وسلم كما حققه ابن قيم الجوزية رحمه الله حيث قال صلى الله عليه وسلم: "ما زالت أكلة خيبر تعتادني كل عام، حتى كان هذا أوان قطع أبهري"[68]، يريد صلى الله عليه وسلم الشاة المسمومة التي قدمتها له اليهودية يوم خيبر تريد قتله، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "والذي نفسي بيده، لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلّفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله، والذي نفسي بيده

[67] صحيح البخاري – حديث ٢٧٩٥
[68] الجامع الصغير للسيوطي – حديث٧٩١٥

لوددت أني أُقتل في سبيل الله ثم أُحيا، ثم أُقتل ثم أُحيا، ثم أُقتل ثم أُحيا، ثم أُقتل"[69]، وتأمل كيف ختم بالقتل صلوات الله وسلامه عليه.

ولما كان هذا الافتراق بين المؤمن والكافر في العقيدة أولاً، وفي قصد القتال ثانياً، وفي الحال التي يُقتل عليها ثالثاً، ناسب أن تبين هذه السورة المباركة عاقبةَ كلٍ من المؤمن المقاتل المقتول في سبيل الله والكافر المقاتل المقتول في سبيل الطاغوت، وذلك في وصفٍ بديعٍ وتفصيلٍ ماتعٍ فيه سلوى النفوس عن كل فقدٍ يفقده المؤمن في الدنيا، وشفاءٍ للصدور عن كل متاعٍ يغرر به الكافر في الدنيا، فلنتدبر:

قال الله تعالى: **(مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّىۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُم)**

نعم، إن المصاب اليوم في غزة خاصة وفلسطين عامة مصابٌ جلل، وإن أشلاء أطفالنا المتناثرة، وصيحات الثكالى المتتابعة، وحرقة قلوب الرجال الذين لا يجدون ما يدفعون به عن دمائهم وأعراضهم وذراريهم وأموالهم

---

[69] صحيح البخاري – حديث ٢٧٩٧

مؤلمة، ولكننا نؤمن أن ذلك كله لا يذهب سدى، ونوقن أن ذلك كله ليس نهاية الطريق، وندرك أن فصل الظلم والطغيان هذا ليس خاتمة المشاهد، فنحن كما ذكرنا في بداية هذه الرسالة نؤمن أن الجنة حق، وأن النار حق، كما أخبر الله تعالى وكما أخبر المعصوم صلى الله عليه وسلم، فإما أن يكون هذا فنطمئن إلى صدق الخبر عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وإما أن لا يكون فلا مناص إذاً من أن نتوحش كما توحش أعداؤنا، وأن نوغل في الإجرام والطغيان كما أوغل أعداؤنا، وأن نكون همجاً مفترسين كما هم أعداؤنا الصهاينة الصليبيين الهمج المفترسين، فالحمد لله أن هدانا للحق، وعلمنا أن الجنة حق لعباده المؤمنين المتقين الصابرين، وأن النار حق لعباده المتمردين الكفرة المجرمين.

قال تعالى: ((**مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ**)؛

فقوله تعالى: (مَثَلُ الجنة) أي صفتها[70]، وهنا عناصر يتعين الوقوف عليها في تفصيل هذه الصفة:

[70] تفسير الطبري- ١٠/١٩٠

- أنهار من ماء غير آسن
- أنهار من لبن لم يتغير طعمه
- أنهار من خمر لذة للشاربين
- أنهار من عسل مصفي

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: "فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة، ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا؛ فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصاً، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها، وآفة العسل عدم تصفيته"[71]، قلت: هذا ما وعده الله المتقين، فالله الله يا أهل غزة وفلسطين، فما بينكم وبين أن تدركوا وعد ربكم إلا تقوى الله، وذلك بأن يكون الرباط والصبر والجهاد والقتال والاستشهاد في سبيل الله وحده فحسب، فليس أحدٌ غير الله يجزي هذا الجزاء، وليس أحدٌ غير الله يملك أن يعوض مؤمني أهل غزة وفلسطين –بل كل المؤمنين الرابطين المجاهدين في ثغور الإسلام عامة– شيئاً عما فاتهم في الدنيا، وانظر إلى هذه المشاكلة بين ما يصبر عليه المؤمنون المبتلون بطغيان عدوهم الصهيوني الغاشم وأنصاره من

[71] حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح – ابن قيم الجوزية - ١/٣٧١

الصليبية الحاقدة وحصاره الهمجي وبين صفة الجنة المتقدمة، فأهل غزة اليوم لا ماء يشربون منه اللهم إلا ماءً آسناً ملوثاً، فالموعد أنهار ماء الجنة غير منتن ولا متغير في جنة الله، وأهل غزة اليوم لا طعام لهم إلا طعاماً فاسداً فالموعد أنهار اللبن الصالح الذي لم يتغير بفساد ونحوه، وأهل غزة اليوم لا يلتذون بشراب ولا يهنأون بطعام فالموعد أنهار يلتذ بخمرها، ولا يشبعون من طعامٍ في حصارٍ خانق مجرم فالموعد أنهار العسل المصفى بإذن الله عز وجل.

وبعد هذا التفصيل المباين لآفات الدنيا الطارئة على مقومات الحياة من ماء وشراب ولذة وطعام، كان الفضل من الله تعالى أن جعل لهؤلاء المتقين من كل ألوان الثمار في الجنة، وكان الفضل من الله تعالى بالعفو عن ذنوبهم والصفح عن معاقبتهم بها.

قال ابن كثير: " وقوله سبحانه وتعالى **(كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ)** أي: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم في الجنة كمن هو خالدٌ في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أي ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات، **(وَسُقُواْ**

مَآءً حَمِيماً) أي: حاراً شديد الحر لا يُستطاع، (**فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُم)** أي: قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء، عياذاً بالله تعالى من ذلك"[72]، وانظر إلى مشاكلة الجزاء للعمل في تقطيع أمعاء الكفار بالعذاب في الآخرة حيث كانوا يأكلون كما تأكل الأنعام في الدنيا في حالةٍ بهيميةٍ لا تعلم لله حقاً، ولا تخاف في عباد الله ربّاً، ولا تراعي فيهم حرمةً ولا ذمة.

فليعِث مجرمو الصهيونية الصليبية في أرض المسلمين فساداً، وليسفكوا من دماء المسلمين أنهاراً، ولينهشوا بسعارهم في أجساد المؤمنين، وليقتلوا منهم وليحرقوا، فإن العاقبة لله، وإن حال هؤلاء المجرمين في دركات الجحيم ليس كحال عباد الله المؤمنين في درجات جنات النعيم.

سادساً: المنافقون خونة الأمة:

لقد ابتلى الله تعالى هذه الأمة بمنافقيها، لحكمةٍ يريدها الله تعالى، ولعل من آثار هذه الحكمة الربانية استخراج ما في النفوس من حقيقة الكفر المستبطنة لدى فئة مريضة القلب فاسدة العقيدة تستتر بظاهر الدين وهي تبغضه، وتبدي التزلف للمؤمنين وهي تكرههم، ولعل من آثار هذه الحكمة

[72] تفسير ابن كثير – ٧/٤٢١

الربانية صقل ما في قلوب المؤمنين من عقيدة مخلصة لتزداد صفاءً ونقاءً، لتكون أكثر استعداداً للإقبال على الله تعالى، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، وأنت ترى أن الله تعالى يريد لعباده الذين اصطفاهم للقائه والإقبال عليه أن ينقطعوا عن كل علائق الدنيا، وأن لا يشاهدوا شيئاً من أسبابها، وكلما كمُل الإيمان كلما عظُم البلاء، حتى إن الله تعالى أمر خليله إبراهيم عليه السلام أن يذبح ولده فلذة كبده وثمرة فؤاده بيده. فليس كل من سمع القرآن اهتدى، وليس كل من تلقى أوامر الرسل انقاد وأطاع، وليس من طبع الله على قلبه كمن هداه الله ووفقه للعمل بوحيه والإتساء برسله؛ فالمرسِلُ واحد، والرسالة واحدة، والرسول واحد، ولكن المرسَل إليهم يختلفون باختلاف صلاحية قلوبهم لتلقي نبتة الإيمان وغرسها ورعايتها حتى تخرج وتثمر وتينع، ومن الزرع ما يحتاج دواءً غير الذي يحتاجه غيرها، والله أعلم حيث يجعل رسالته، والله أعلم من يطبع على قلبه، فلنتدبر هذا المشهد القرآني التشخيصي الذي يعينك أيها المؤمن على فهم بعض عناصر المشهد الذي تعيشه اليوم وأهل غزة المؤمنين محاصرون لا من أعداء الدين الظاهرين بل من أعداء الدين المستبطنين المريضة قلوبهم، الفاسدة أهواؤهم، فلنتدبر:

قال الله تعالى: (**وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ. وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ. فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ. فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ**)[73]،

هنا فريقان من الناس إذاً، فريقٌ ممن ظاهرهم الاستماع للرسول صلى الله عليه وسلم، وممن ينتسبون لهذه الأمة الإسلامية انتساباً ظاهراً، يحضرون سماع القرآن ظاهراً، وقد يزينون بآيةٍ قرآنية جدران قصورهم ودواوينهم، ويحضرون سماع السنة ظاهراً، وقد يزينون بحديثٍ نبوي مجالسهم وإعلامهم، لكنهم عن حقيقة التصديق بخبر القرآن بعيدون، ومن حقيقة الانقياد لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم محرومون، قال ابن كثير : "يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقلة فهمهم، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستمعون كلامه ولا يفهمون منه شيئاً، فإذا خرجوا من عنده (قالوا للذين أوتوا العلم) من الصحابة رضي الله عنهم : (ماذا

[73] سورة محمد – الآيات ١٦-١٩

قال آنفاً) أي: الساعة، لا يعقلون ما قال، ولا يكترثون له"[74]، وما أجمل ما قاله قتادة : "(ومنهم من يستمع إليك) قال: هم المنافقون، وكان يُقال: الناس ثلاثة: سامعٌ فعامل، وسامع فعاقل، وسامعٌ فتارك"[75]، قلت: ولا يقتصر هذا على آيات الله الشرعية من وحي القرآن والسنة، بل يمتد إلى آيات الله الكونية مما يشاهده الناس ويسمعونه، بحيث لا ينتفع بمشاهدتها وسماعها إلا من كان له قلبٌ حاضر غير مطبوع، وقلب سليم غير هاوٍ في دركات الردى والأهواء، وبهذا تفهم أيها المؤمن كيف لا تحرك مشاهد ترويع الآمنين، وانتهاك الحرمات، والفتك بالأطفال والنساء والشيوخ، وهدم المساجد والبيوت فوق رؤوس المصلين فيها والآمنين كيف لا يحرك شيء من ذلك ثلة النفاق المنتسبة زوراً إلى هذه الأمة، لأنها فئة من المطبوع على قلوبهم المتبعين لأهوائهم الذين لا يسمعون سماع انتفاع، ولا يبصرون إبصار انتفاع، فكيف تنتظر منهم الأخذ على يد الظالم، والانتصار للمظلوم ولو بشيء يسير من الكثير الذي يملكونه لنصرتهم والتصدي لعدوهم، لكن هيهات: (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم) أي "ختم الله على قلوبهم فهم لا يهتدون للحق الذي بعث به رسوله عليه الصلاة والسلام"[76]، فهو

---

[74] تفسير ابن كثير – ٧/٤٢١
[75] تفسير الطبري- ١٠/١٩٣
[76] تفسير الطبري- ١٠/١٩٣

يسمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه"[77]، ولكنه لا يعقله فلا يرى – وهو قادر– أن المسلمين في غزة وفلسطين إخوته الذين لا يجوز التخاذل عنهم وتسليمهم لعدو الله ودعوهم، وإن عقل ذلك تركه ولم يعمل به يخشى أن يفقد شيئاً من مكانته عند أعداء الله المحاربين لإخوته المجاهدين في إبادتهم واستئصال شأفتهم، وهو إن تلمظ وتشدق سارع إلى استجداء الطاغوت الدولي وتمتم بمحامد أمريكا يستجديها النصرة وتفريج الهموم، وهذا غاية الطبع على القلوب والختم عليها عياذاً بالله من ذلك. ثم هو يسمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يدٌ على من سواهم، يردُّ مُشدُّهم على مضعفهم، ومتسرِّيهم على قاعدهم، لا يُقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهدٍ في عهده"[78]، ولكنه لا يعقله، وإن عقله لم يعمل به وتركه وتحاكم إلى غيره من قوانين الطاغوت المسمى بالشرعية الدولية؛ وبيان ذلك أنه لا يرى تكافؤ دم المسلمين في غزة مع دم المسلمين في وطنه فتراه يكتفي في الانتصار المزعوم لمسلمي غزة بالعويل والصراخ، في حين أنه يُرعد ويزبد ويهدد بجيوشه

---

[77] صحيح البخاري – حديث ٦٩٥١

[78] سنن أبو داود – حديث ٢٧٥١ ومشدهم يعني من له دابة شديدة يركبها يجاهد عليها، والمضعف من لا يجد ما يحمله إلا دابة ضعيفة، والمتسري الخاريج في سرية يغزو في سبيل الله ،القاعد من لم يخرج

المجيشة إن اعتدى أحد على سيادة وطنه وأرض بلاده، كما أنه لا يسعى في نصرة المسلمين في غزة بذريعة أن فصيلاً من فصائل المجاهدين هم الذين أخذوا قرار الحرب وأدخلوا الناس في الفتنة و"قتلوا" من الصهاينة المساكين، فتراه لا يحفظ ذمة المسلم البعيد عن موطنه ولا يحترم قرار الميدان –وأهلُه أعلم به– وقد كانوا يتجرعون المر سنيناً فلا ناصر لهم قبل قرار الحرب، ولا ناصر لهم في الحرب، ولا ناصر لهم بعد الحرب، فهذا لم يفهم ولم يعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "يسعى بذمتهم أدناهم"، وهو –أي هذا المنافق المريض– يسمع قوله صلى الله عليه وسلم "ويجير عليهم أقصاهم" فلا يعقل ذلك ولا يعمل به ولا يحترم ما تقوم به الفصائل المجاهدة فيما نشهد والله حسيبهم من معاملة الأسرى الصهاينة بما يستطيعون من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة هؤلاء الأسرى أنفسهم، بل ترى هذا المنافق المريض يسير في ركاب العدو الصهيوني فيسمي أسرى الحرب "رهائن" وكأنه يصور المجاهدين بصورة عصابات السطو والإجرام، ويريد أن يحمل المجاهدين ويضغط عليهم "لتحرير الرهائن" دون أي نظر أو تقدير إلى دراية المجاهدين وهم أهل الميدان بما يصلح من التعامل مع الأسرى من الخيارات الشرعية التي تحقق مصالح المسلمين لا مطامع

الكافرين المحاربين، ولكن كيف يفقه هذا من طبع الله على قلبه، فلم يفقه عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديثاً، ولم يعمل بشيء منه إن فقهه، فبدلاً من أن ينصر إخوانه المجاهدين في حسن جوارهم لأسرى العدو تراه يطعن فيهم وفي قرارهم وفي تصرفاتهم، نعوذ بالله من الطبع على القلوب والختم عليها، ثم هو يسمع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "وهم يدٌ على من سواهم" فلا يفقه ولا يعمل بشيء من معناه، بل الأسوأ من ذلك أنه يطبق معنى الحديث مع أعداء الله المحاربين فيدخل معهم في يد واحدة وحلف واحد لمحاربة المسلمين في فلسطين وغزة كما فعل في غيرها من ديار المسلمين من قبل تحت مسمى "التحالف الدولي لمكافحة الإرهاب"، فيستبيح قتل المسلمين في غزة تواطؤاً وصمتاً وخذلاناً بل ومداً بالإسناد المالي والمعنوي وما خفي كان أعظم، كما استباح ذلك في الأمس القريب في العراق وسوريا وأفغانستان وغيرها مما لا يحصى كثرةً من بلاد المسلمين، فهذا المريض المنافق يسمع حديث "وهم يدٌ على من سواهم" فيضعه في غير موضعه ليكون يداً مع الكفار المحاربين على المسلمين عامة والمجاهدين خاصة، وأي طبع على القلوب وأي رانٍ أشد من هذا الطبع والران. ثم هو يسمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " يرد مُشدّهم على

مضعفهم ومتسريهم على قاعدهم" فلا يفقه منه أن صاحب الراحلة والزاد والمتاع يرد من ذلك على من لا راحلة له ولا زاد ولا متاع من المسلمين المحاصرين في غزة يخنقهم الأسى الممزوج بدخان القنابل، ويهلكم العطش من حبس الماء ويهلكهم الجوع من الحصار الخانق، ولا يفقه منه أن من يملك الجيوش والطائرات والصواريخ والأساطيل يحتفظ بها لمهرجانات الأعياد الوطنية ولا يغيث بها المجاهدين والمسلمين في غزة، بل لا يحرس بها قوافل الإمداد التموينية والطبية والإيوائية التي يزعم ويتلمظ بالتحسر على منعه من إدخالها، وهو قادر لو أراد أن يدخلها تحت غطاء جوي مدفعي صاروخي، وهو قادر أن يبرم للتو اتفاقية دفاع مشترك مع أهل غزة وفلسطين حتى لا يقع تحت لوم القانون الدولي والشرعية الدولية لو كان صادقاً، ولكن هيهات من قلوبٍ أصيبت بالطبع، ونفوسٍ تعبدتها الأهواء، ثم هو يسمع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "لا يُقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده"، فلا يفقهه، وإن فقهه لم يعمل به، بل عانده وخالفه، فتراه يقتل إخوانه المسلمين خذلاناً وتواطؤا ومنعاً لما يستطيع نصرتهم به من عتاد وعديد، لأنهم يرون أن المجاهدين الذين قاتلوا الكفار الحربيين وقتلوا منهم يرون أنهم هم المعتدون وأنهم هم "الإرهابيون" ألا تباً

لعقولٍ انتكست بأصحابها هذه الانتكاسة المشؤومة، وبُعداً لقلوب طبعت بهذا الطابع المشؤوم، فهذا المنافق المريض لا يفقه أنه لا يجوز قتل مؤمن بكافرٍ فضلاً عن كافرٍ حربي، وأنه لا يجوز إخفار ذمة كتابي ذمي في حماية وكنف المسلمين من نصارى فلسطين الذين لهم ذمة الله ورسوله ممن لم يخفروا لله ذمةً ولم ينقضوا لرسوله وللمسلمين عهداً ولم يواطؤوا عدواً، فترى هذا المنافق المريض وهو يتشدق في بلده وموطنه وكل منصات الطاغوت الدولي بالتسامح بين الأديان وبمحبة أتباع الكتب السماوية تراه لا يبالي بمن يُقتل منهم وهم بين المسلمين مراعين لعهدهم حافظين لذمتهم، فهذا كله لا يفقهونه، وإن فقهوه لا يعملون به، فأهل الكتاب من أهل فلسطين الذين لهم أصل عهد الذمة ممن لم يقاتل المسلمين ولم يخفروهم في ذمتهم لهم حرمة العهد النبوي، ولكن المنافق المريض يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ولا ذو عهد في عهده" فيترجمه تمييعاً للعقيدة وخلطاً بين الدين الحق والأديان المحرفة، ولكن حين يكون التطبيق الفعلي لمعنى الحديث يخفر ذمة المعاهد بين المسلمين كما خفر ذمة المسلمين وتواطأ عليهم، فكفى به من طبعٍ على القلوب، وكفى به من إتباع للأهواء، وكفى بجهنم سعيراً، قال الطبري رحمه الله:" وسوّى جل ثناؤه بين صفة هؤلاء

المنافقين وبين المشركين في أن جميعهم إنما يتبعون فيما هم عليه من فراقهم دين الله الذي ابتعث به محمداً صلى الله عليه وسلم أهواءهم، فقال في هؤلاء المنافقين : (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم)، وقال في أهل الكفر به من أهل الشرك: (كمن زُين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم)[79]"[80]

فذلك فريق ممن وصلته الرسالة المحمدية، ومن دون ذلك فريق آخر: (والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم)، أولئك الذين سمعوا صراخ أطفال غزة وكأنهم أطفالهم، وراعهم تشرد نسائهم وكأنهن نساءهم، وتقطعت قلوبهم غيظاً أن مُنعوا عن نصرة إخوانهم، هؤلاء الفئة الذين يسمعون كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم " المسلم أخو المسلم" فيفهمون منه أن المسلم في غزة، في القدس، في فلسطين، في كل مكان من أرض الله هو أخوه الذي يفديه بالمال والنفس وينصره بكل ما يملك لم استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويفهم منه أن يعذر إخوانه المجاهدين في اجتهاداتهم، ويدعو لهم بالنصر والسداد على عدو الله وعدوهم، ويرجو أن يكون خادماً بين أيديهم، أو يخلف أهلهم في غيابهم، أو يكفل طفلهم إن

[79] سورة محمد – آية ١٤
[80] تفسير الطبري – ١٠/١٩٣

اصطفاهم الله للشهادة، يسمعون كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا"[81] فيرجون الله أن يجعلهم من أهل هذا الحديث إذ فاتهم شرف الحضور في الميدان،

قال الطبري في قوله تعالي: (والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم):"يقول تعالى ذكره: وأما الذين وفقهم الله لاتباع الحق وشرح صدورهم للإيمان به وبرسوله من الذين استمعوا إليك يا محمد – صلى الله عليه وسلم – فإن ما تلوته عليهم وسمعوه منك (زادهم هدىً) يقول: زادهم الله بذلك إيماناً إلى إيمانهم، وبياناً لحقيقة ما جئتهم به من عند الله إلى البيان الذي كان عندهم"[82]،

وقال ابن كثير: "(والذين اهتدوا زادهم هدىً) أي: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله تعالى لها فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها، (وآتاهم تقواهم) أي ألهمهم رشدهم"[83]،

قلت: ولعل هذا سر المسألة أعني قول ابن كثير رحمه الله "والذين قصدوا الهداية" فإن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، ولا يوفق الله تعالى إلى

---

[81] صحيح البخاري – حديث ٢٨٤٣
[82] تفسير الطبري- ١٠/١٩٣
[83] تفسير ابن كثير – ٧/٤٢١

قبول الحق عند وقوعه من لم يتعهد قلبه بالتصديق، ولسانه بالذكر، وجوارحه بالعمل قبل الوقوع، حتى إذا اشتد أوار الحرب وحمي الوطيس ووقع القتل والتهجير زاد المؤمنين ذلك إيماناً مع إيمانهم، وزاد المنافقين خذلاناً ومرضاً إلى مرضهم وخذلانهم، والله أعلم.

وأما قوله تعالى: (**فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ. فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ**) ، فهو فصلُ الخصومة بين الفريقين، فالساعة – أي يوم القيامة – لها علامات، ومن علامات قرب الساعة بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا سرٌ آخر من أسرار هذه السورة العظيمة فيما تقدم الإشارة إليه من عطف الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم على الإيمان العام، ففي حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بإصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام:" بُعثتُ والساعة كهاتين"[84]؛ وكأن الآية تشير إلى قرب قيام موازين العدل يوم القيامة لينتصف لكل مظلومٍ ممن ظلمه، وليكتمل مشهد العدل الرباني بالجزاء في

[84] صحيح البخاري – حديث ٤٩٣٦، وصحيح مسلم – حديث ٢٩٥٠

الآخرة بعد أن اكتمل مشهد الحكمة الربانية في الابتلاء في الدنيا، ولما كان الطواغيت السادرون في غيهم المتمادون في غفلتهم لا يفهمون هذا المعنى من بعثته صلى الله عليه وسلم ولا يحذرون الساعة كحذر من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وأدرك أن بعثته علامة من علاماتها، نبهت الآية إلى مجيء الساعة بغتة، قال ابن كثير: "أي غافلون عنها"[85]، ولهذا فهم لا ينتفعون ببعثة محمدٍ صلى الله عليه وسلم كما أن المنافقين المتقدم ذكرهم لا ينتفعون من حضور حديثه والسماع منه صلى الله عليه وسلم، ولا من سماع سنته بعد موته صلى الله عليه وسلم، (فأنّي لهم إذا جاءتهم ذكراهم)، قال ابن كثير:" أي : فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك"[86]،

وكذلك نقول: إن المنافقين القاسية قلوبهم عن ذكر الله فلا ينتفعون بآياتها، قاسيةٌ قلوبهم عن مشاهد ابتلاء المسلمين فهم لا يتأثرون بها ولا يأبهون لها، بل جل اهتمامهم رضى أوليائهم من اليهود والنصارى عن أقوالهم وأفعالهم، وإن الكافرين المحاربين لأولياء الله تعالى من المؤمنين لا تؤذيهم مشاهد القتل والتدمير ولو مزقت الأطفال أشلاءً، ولو شردت وهتكت

[85] تفسير ابن كثير- ٧/٤٢١
[86] تفسير ابن كثير – ٧/٤٢٢

حرمات النساء، ولو فتكت بالمستضعفين من الشيوخ والعاجزين، لأنهم كما أنهم ليست لهم قلوب يعون بها علامات قرب الحساب، وليست لهم قلوب يدركون بها رسالة الإسلام، وليست لهم قلوب يفقهون بها عن نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم ما يرضي الله عنهم فيلتزمونه وما يغضب الله عليهم فيجتنبونه، فإنهم كذلك ليست لهم قلوب يرأفون بها بالمستضعفين، وليست لهم قلوب يرحمون بها الإنسان لإنسانيته كما هو حال المقاتل والمجاهد المسلم، فكيف يرجو الحمقى والمغفلون من أمثال هؤلاء أن يستجيبوا لنداءات الإنسانية وقد عدموها، أو لصرخات المظلومين فيُنصروها... إنما المستغيث بهؤلاء كالمستغيث بالذئب ليخلص فريسته منه...

ولكن هذا الابتلاء الذي ذكرنا بعضاً من مشاهده اليوم ابتلاءٌ شديد، وزلزالٌ رهيب، يحتاج إلى تعهد قلوب المؤمنين بالصيانة والتثبيت لئلا ترضخ لوساوس الشيطان وتساؤلات كنحو: لماذا يجري هذا؟ وما ذنب الأطفال؟ ولماذا لا يتوقف هذا الشر وهذا الطغيان – تعالى الله عن أي نقص أو عيب، لا يُسأل عما يفعل وهم يفعلون – وإنما نذكر هذا على سبيل الحكاية والمثال ولا نعترض على شيء من أمر الله تعالى سبحانه، والحاصل

أن شدة هذه المحنة تحتاج إلى تعهد غرسة الإيمان في القلب، فقال الله تعالى: (**فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ**)؛ وهذا الخطاب لتأكيد العلم بوحدانية الله والثبات عليها،

قال القرطبي: "وقيل: لما ذكر له حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان، أي اثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر عما تحتاج معه إلى استغفار"[87]، فهذا التوحيد بحاجة إلى تعهدٍ مستمر، وطريق هذا التعهد والثبات هو الاستغفار، استغفار المرء لنفسه، وللمؤمنين وللمؤمنات إمعاناً في الولاء الإيماني والتعهد الجمعي لشجرة الإيمان، ولأهمية هذا الاستغفار ودوره العظيم في تعهد التوحيد والثبات عليه علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صيغاً نافعةً شافيةً لهذا الاستغفار، منها ما ذكره ابن كثير في تفسير الآية: "وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي"[88]، قلت: ولا يصلح اليوم وقد رمى الناس بحقدهم الصهيوني

---

[87] تفسير القرطبي- ١٦/٢٠٦

[88] تفسير ابن كثير – ٧/٤٢٢ والحديث في صحيح البخاري – حديث ٦٣٩٩

وصليبيتهم البغيضة أهل غزة وفلسطين عن قوسٍ واحدة أن نقع في لمزهم وعيبهم فيما أقدموا عليه من الطوفان الذي أيقظوا به ضمير الأمة، وبعثوا في جسدها روح الجهاد والعزة، بل نستغفر لأنفسنا الساعة من كل ما قد نكون قد وقعنا فيه من الإساءة إليهم، ونستغفر الله تعالى لهم من كل ما قد يكونوا قد جانبوا فيه الحق والصواب فإنهم غير معصومين، ولكن هذا الوقت وقت الاستغفار الفردي والجمعي كي تثبت شجرة التوحيد في أرض الإسلام، وكي تشترك الأمة كلها في تعهد هذه الشجرة بالسقاية، تارة من دم الشهداء وتارة من دم العلماء، وتارة من دم الصابرين، وتارة من دم المرابطين في المساجد، وتارة من دم المعتكفين في البيوت، وتارةً، وتارةً، وتارةً، حتى نسدد أثمان البيعة دفعةً واحدة كما الشهداء، أو أقساطاً كما المرابطين الصابرين على قوله تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله)، ونحن نتقلب في هذه الأحوال كلها ندرك أن شيئاً من ذلك لا يذهب سدىً لأن الله تعالى أخبرنا: (والله يعلم متقلبكم ومثواكم).

سابعاً: تمحيص الإيمان وقمع البدع بالسنن الشرعية والكونية:

إن الله تعالى حين يمنُّ على عباده بالإيمان، ويعقد معهم بيعة الرضوان، فيشتري منهم أموالهم وأنفسهم التي وهبهم إياها بالجنة الغالية، فإنهم يتلهفون لتسديد ثمن البيعة هذه، ويتلهفون للانتصار للحق من الباطل، ولنصرة المظلوم على الظالم، وقد يتظاهر بذلك بعضُ أهل النفاق ممن يريد استعجال مصالح دنياه، وقد يتظاهر به أيضاً بعض أهل البدع ممن غلبت أهواؤهم على قلوبهم حتى اخترعوا لأنفسهم عقيدةً ابتدعوها، وسلكوا طريقاً لأنفسهم يبتغون به الفوز والفلاح على غير هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالمنافقون وأهل البدع يشتركون في بعض تصرفات الظاهر، فأما المنافقون فيحرزون مكانتهم في الأمة الإسلامية بظواهر أقوال وأفعال المسلمين وهم يبطنون ما يبطنون في قلوبهم، وأما أهل البدع فيتعلقون بأسماء الدين منفكين عن مسمياتها ومعانيها الشرعية التي بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيلةً ليروجوا بذلك بدعتهم، ويستحلوا بهذه الأسماء دماء أهل الإسلام، كما قال أبو قلابة من أئمة التابعين رحمه الله: "ما ابتدع

رجل بدعة إلا استحل السيف"[89] قلت: يعني في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الذي اختبرته الأمة على يد المجوسية الصفوية المتسترة بستار البدعة، المنتحلة أسماءً ظاهرها أسماء الدين وباطنها السم الزعاف، غير أن المسألة بحاجة لتفصيل يضيق عنه المقام، فأقتصر ببيان ما يتعلق بحالة جهاد الدفع وما يمكن إسقاطه على الواقع في ساحة جهاد الصهيونية الصليبية في غزة وفلسطين اليوم، فلننظر في الآيات ثم نتدبر ما ييسره الله تعالى لنا من معانيها وإسقاطاتها، قال الله تعالى:

(وَيَقُولُ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ. طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ**)[90]؛

ولنبدأ بأخر الآية حيث قال الله تعالى عن مرضى القلوب (فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم)، يعني: (فإذا عزم الأمر) أي جدّ الحال وحضر القتال، (فلو صدقوا الله) أي أخلصوا له النية، (لكان خيراً لهم)؛ فتأمل هذا المشهد القرآني الفاضح، ثم تأمل إسقاطاته على ساحة الجهاد

---

[89] الشريعة للآجري – الأثر ١٤٥

[90] سورة محمد – الآيات ٢٠-٢١

في فلسطين اليوم عموماً وغزة خصوصاً، والمجاهدون يسطرون فيها أروع ملاحم العزة والإباء ويصونون شرف الأمة جمعاء، فإذا بدولة البدعة وأذنابها يجلسون حيث جد الحال، ويتعذرون حيث حضر القتال، يقيمون بعض الاستعراضات البهلوانية التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وهم يتربصون بالمسلمين الدوائر، فإن صمد المجاهدون تشدقوا بنصرتهم ببعض البهلوانيات الفقاعية، وإن استأصل الصهاينة الصليبيون شأفة المسلمين قالوا في أنفسهم، هذه دماءٌ قد كُفيناها... ولكن السؤال هنا عن الموقف الشرعي العقدي من انضمام فرق البدع للقتال مع المجاهدين فيما لو احتدم القتال وانضموا إليه، فهذا فيه تفصيل مهم جداً:

إن المؤمنين بصدق كما تقدم يتمنون تفدية دينهم بالأموال والأنفس، وإن المتظاهرين بالإسلام من أهل النفاق والبدع يتكلمون – وقت السلم والراحة – بمثل كلامهم، وإن حكمة الله في تمحيص هؤلاء وهؤلاء ظاهرة، فبينت هذه السورة تمحيص هذه القلوب المؤمنة والمنافقة والمبتدعة تمحيصاً شرعياً وتمحيصاً كونياً؛

فأما **التمحيص الشرعي** فبفرض القتال جهاد دفعٍ كان أم جهاد طلب، حيث قال الله تعالى: (فإذا أُنزلت سورةٌ محكمةٌ وذُكر فيها القتال)،

وأما **التمحيص الكوني** فبوقوع نفس القتال مع الكفار المحاربين أو الممتنعين، حيث قال الله تعالى (فإذا عزم الأمر) أي جد القتال وحضر، واشتعلت نار الحرب وأضرمت.

ولا سبيل إلى تحقيق التمحيص الإيماني شرعاً حيث نزلت سور القتال وآياته في القرآن إلا بحمل النفوس على الطاعة والانقياد وإعداد العدة اللازمة لتلبية منادي الجهاد، كما أنه لا سبيل إلى تحقيق التمحيص الإيماني كوناً حين تلتحم الصفوف ويجد القتال إلا بالتشمير عن ساق الجهاد، والكشف عن ساق الحرب دون تردد أو تلكؤ أو تربص بالفريق الغالب أو المغلوب، وهنا يخذل الله من هو أهلٌ للخذلان، ويوفق الله من هو أهل للهداية والثبات.

ولقد أشرنا إلى حال المنافقين آنفاً، فنخصص هذا الموضع للإشارة إلى حال أهل البدعة من جهة النظرة الشرعية لموقفهم واحتمال انخراطهم في الحرب مع العدو الصهيوني الغاشم، ولهذه المسألة تفاصيل كثيرة ليس هذا موضع التفصيل فيها بل أقتصر على ما يتعلق بخصوص الساحة القتالية في غزة اليوم والفرق البدعية الفاعلة الرئيسة في محيط هذه الساحة، ولهذا النظر وجهان وجه شرعي ووجه كوني، فأما **الوجه الشرعي** فيتعلق بجواز

القتال معهم أو قتالهم معنا، والقاعدة العامة هنا أن **جهاد الدفع لا شرط له، ولا يستلزم ذلك ولا يعني إقرار المبتدع على بدعته كما أن قتال الفاسق مع المسلمين لا يعني إقراره على فسقه**، ولقد خرج المنافقون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته، وغزوة أُحد أنموذج من هذه الغزوات، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يختبر أو يمتحن عقيدة من يخرج معه في الجهاد وهو يعلم صلوات الله وسلامه عليه أن فيمن يخرج المنافق وغيره، ولكن ليُلتزم الحذر بحيث لا يطلع هؤلاء على أسرار المجاهدين وعوراتهم الميدانية، وكل ما يتعلق بأمن الجهاد والمجاهدين، وقد يكون من أهل البدع من هو أمينٌ في دينه، صادقٌ في قتاله، ففيه بدعة وإيمان، معصية وطاعة، فيعامل على ظاهره، ولنا في علماء الحديث سنة في هذا المنهج، فالقول المختار عندهم قبول رواية المبتدع بدعة غير مكفرة إذا لم يكن داعياً إلى بدعته، وليس هذا مجال التفصيل في المسألة ولكن المقصود أن الفرد قد يجتمع فيه بدعة وسنة، معصية وطاعة، فليس في جهاده مع المسلمين إقرار على بدعته، كما أنه ليس في الرواية عنه إقرار على بدعته، والحقيقة أن محل بحث المسألة يتعلق بالنظر في قواعد السياسة الشرعية من حيث ميزان المصالح والمفاسد وأمراء القتال والجهاد أعلم بذلك فلا يسعنا

إلا أن ندعو الله لهم بالسداد في الرأي والتوفيق في العمل، **ويعينك على فهم هذه المسألة أن تنظر إلى أهل البدعة المقاتلين مع المجاهدين نظر الآلة، فمهما كانت الآلة معينةً على تحقيق مقاصد الجهاد الميدانية والسياسية كان الأمر على اتخاذ هذه الآلة، ومهما أضر ذلك بمقاصد الجهاد الميدانية والسياسية أُهملت واتقيت هذه الآلة**، وهذا هو الوجه الكوني لهذه المسألة وبه يتضح الأمر ويلتئم التأصيل العقدي والتأصيل السياسي الميداني، والله الموفق.

وهنا تنبيه مهم، وهو أن التنظير والإنكار على المجاهدين في غزة وفلسطين في استعانتهم بما تيسر لهم من وسائل الحرب وآراء الحرب وبعض الكلام الذي يعلنون به على الملأ – مما لا نقره ضرورةً– مع ترك الإنكار على الدول الإسلامية التي تمنع عنهم الماء والغذاء والهواء والدواء ناهيك عن السلاح والمؤونة والعتاد والإمداد هو نوعٌ من السفه والخذلان، وأما بالنسبة لما قد يظهر من كلام بعض قيادات الفصائل الجهادية من مواءمة لأهل البدع مقابل إمدادهم بما يُحتاج إليه من آلة الحرب والقتال – على فرض وقوع ذلك كله– فقد ترجم الإمام البخاري في صحيحه باب : الفتك بأهل الحرب من حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مَن

لكعب بن الأشرف؟ فقال محمد بن مسلمة: أتحب أن أقتله؟ قال: نعم، قال: فأْذن لي فأقول، قال: قد فعلت"[91]، قلت: وقوله رضي الله عنه "فأْذن لي فأقول" استئذان من النبي صلى الله عليه وسلم أن يتكلم بكلام منهيٍ شرعاً في تعريضٌ بالنبي صلى الله عليه وسلم مما يكون كفراً لو قصده قائله لما فيه من انتقاص من مقام النبوة حاشاه صلى الله عليه وسلم، ولكن محمد بن مسلمة يحتاج هذا الكلام ليتمكن من عدو الله، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويبين لك هذا ترجمة الباب الذي قبله حيث قال الإمام البخاري رحمه الله:" باب : الكذب في الحرب" وذكر حديث جابر بتفصيلٍ أكثر فقال: "عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مَن لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله؟ ، قال محمد بن مسلمة: أتحب أن أقتله يا رسول الله؟ قال : نعم، قال: فأتاه فقال: إن هذا – يعني النبي صلى الله عليه وسلم – قد عنّانا وسألنا الصدقة، قال: وأيضاً! والله لَتَمَلُنّه، قال: فإنا قد اتبعناه فنكره أن ندعه حتى ننظر إلى ما يصير أمره، قال: فلم يزل يكلمه حتى استمكن منه فقتله"[92]؛ فبعد أن استأذن محمد بن مسلمة رسول الله صلى الله عليه

[91] صحيح البخاري – حديث ٣٠٣٢
[92] صحيح البخاري – حديث ٣٠٣١

وسلم أن يقول قولاً، جاء محمدُ بن مسلمة إلى كعب بن الأشرف وتكلم معه بكلام يبين فيه شيئاً من الامتعاض مما قد أثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم به من المطالب وذلك قوله "عنّانا" – والحديث وشرحه مبسوطان في مظانهما- وإن من فقه الإمام البخاري رحمه الله أن ترجم قبل هذا بباب "الحرب الخدعة"، فكانت التراجم الثلاثة المتوالية: باب الحرب خدعة ثم باب الكذب في الحرب، ثم باب الفتك بأهل الحرب، رحمه الله تعالى ما أفقهه.

والشاهد أن المرابطين على ثغر الإسلام في فلسطين عموماً وفي غزة خصوصاً يجتهدون ما استطاعوا فندعو الله تعالى لهم بالسداد في اجتهادهم والتوفيق في أعمالهم، ولو أن الأمة الإسلامية والدول الإسلامية المتشدقة بالتحذير من الصفوية المجوسية ومن أهل البدع المارقة لو أنها صدقت الله ورسوله، وأمدت المجاهدين والمرابطين في فلسطين وفي غزة المحاصرة بما يحتاجون فكفوهم مؤونة السلاح والعتاد والميرة لما اضطروا إلى شيء مما قد يُنكر عليهم، فليتق الله قومٌ يتكلمون بأهواء الظلمة المتواطئين مع أعداء الإسلام على أهل الإيمان، وليكفوا ألسنتهم عن المسلمين وعن المجاهدين، وليلزموا قول الله تعالى : (فإذا عزم الأمو فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم)

فلقد عزم الأمر والله، وأضرمت نار الحرب واشتد أوارها، فهذا وقت رص الصفوف، وإمداد الجيوش، والدعاء بقلب رجل واحد أن يفرغ على إخواننا المجاهدين وأهلنا المرابطين صبراً وتثبيتاً للإقدام وأن يمنّ عليهم وعلينا بقمع أهل الكفر وأولياء الشيطان، إنه عزيزٌ حكيم.

ثامناً: خذلان المسلمين تقطيع للأرحام وفساد في الدين:

لقد تقدم آنفاً موجبات الولاء الإيماني من حيث نصرة المسلمين بعضهم البعض، وحملهم يداً واحدةً على عدوهم، ولقد عادت السورة لتؤكد هذا المعني من خلال التحذير من عواقب النكول عن القتال في سبيل الله حيث يجب، والتحذير من عواقب خذلان المسلمين بعضهم بعضاً حيث يلزم، قال الله تعالى: (**فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ. أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ. أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ**)[93]، ففي هاتين الآيتين تحذير خطير ووعيدٌ شديد لمن تولّى عن الجهاد في سبيل الله حيث بينت عواقب ذلك كما يلي:

[93] سورة محمد – الآيات ٢٢-٢٤

- **الإفساد في الأرض**: وهذا الإفساد في الأرض بترك الجهاد دفعاً كان أم طلباً هو العودة إلى الكفر، عقيدةً وشريعةً، قال ابن كثير :" أي تعودوا إلى ما كنتم عليه من الجاهلية الجهلاء، تسفكون الدماء، تقطعون الأرحام"[94]، قلت: وها هي الجاهلية الجهلاء اليوم تَحاكُمٌ إلى الطاغوت المسمى الأمم المتحدة والشرعية الدولية التي لا تعمل إلا ولوغاً في حرمات المسلمين ودمائهم وأعراضهم، والتي تعطي الشرعية للكافر الحربي الغاصب المحتل من الصهاينة المجرمين وتنكرها على أهل الحق في فلسطين، وبهذه المناسبة نبين شرعاً أنه لا لحل الدولتين، بل هي دولة واحدة يعود فيها الحق لأصحابه ويعيش فيها من أحب في ذمة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، أما الاعتراف بهذا الكيان الصهيوني المجرم والتطبيع معه فخيانة لله ولرسوله وللمسلمين، وأي فسادٍ أعظم من إقرار هذا الكيان المجرم الموغل في دماء المسلمين، وفي دماء أهل الذمة، والمعطل للمساجد والهادم لها، قاتل الأطفال وسفاح النساء، وقناص الشيوخ والكهول، ومفجر المشافي والمخابز وملوث الماء والهواء، عدو الله وعدو الرسل وعدو

---

[94] تفسير ابن كثير – ٧/٤٢٥

الملائكة وعدو المسلمين، أي فسادٍ في الأرض أعظم من أن يعتبر هذا الكيان المجرم الممسوخ كياناً معتبراً له دولة ورئيس ووزراء وهم ليسوا إلا عصابة من حثالات الخلق المجرمين. ولقد جربت بعض الدول العربية عقد المواثيق مع هذا الكيان الصهيوني فماذا كان سوى الغدر والقتل والهدم والتدمير، ألا إن هذه المواثيق منبوذة، وإن كان الصهاينة بتفننهم في الإجرام لم يحيجوا أحداً إلى نبذ هذه المواثيق إن كانت لها شرعية أصلاً.

- **تقطيع الأرحام**: روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خلق الله الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت، فقال له: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذاك"[95]، قلت: والذي يظهر اليوم والدول العربية الإسلامية لا تنكل عن دعم المجاهدين في سبيل الله والمرابطين في غزة فحسب، بل تضيق خناق الحصار الصهيوصليبي عليهم من خلال إغلاق المعابر وإغلاق الحدود التي يمكن من خلالها تقديم

[95] صحيح البخاري – حديث ٤٨٣٠

كافة أنواع الإمدادات والدعم للمسلمين في غزة المحاصرة الأبية الصامدة، الذي يظهر من هذا هو تقطيع للأرحام بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فكم من أسرة وعائلة في غزة وأرحامها ممتدة في بلدٍ مجاور، فهل من فسادٍ أعظم من هذا، فمن لم تدفعه حمية الدين لنصرة إخوانه المسلمين فلتدفعه صلة الرحم التي توعد قاطعَها بالقطع ربُ العالمين. قال ابن كثير: "بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والفعال وبذل الأموال"[96]

- **اللعن والطرد من رحمة الله:** قال الطبري رحمه الله: "وقوله (أولئك الذين لعنهم الله) يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين يفعلون هذا، يعني الذين يفسدون ويقطعون الأرحام الذين لعنهم الله فأبعدهم من رحمته، (فأصمّهم) يقول: فسلبهم فهم ما يسمعون بآذانهم من مواعظ الله في تنزيله، (وأعمى أبصارهم) يقول: وسلبهم عقولهم فلا يتبينون حجج الله، ولا يتذكرون ما يرون من عبره وأدلته"[97]، قلت: فالدول الإسلامية التي تنكل عن الجهاد ودعم المجاهدين وتمعن في حصار

[96] تفسير ابن كثير – ٧/٤٢٥
[97] تفسير الطبري – ١٠/٢٠٠

المسلمين المستضعفين في غزة إنما يفعلون ذلك ابتغاء مصلحة ما، وأياً كانت تلك المصلحة فإن السؤال المطروح: هل تربو هذه المصلحة في نظرهم على مفسدة لعنهم وطردهم من رحمة الله، إنها لتجارةٌ بائرةٌ وإنه لبيعٌ خاسرٌ والله، فيالهم من أعداء أنفسهم، وصدق الشاعر إذ قال:

ما يبلغ الناسُ من جاهلٍ ما يبلغ الجاهلُ من نفسه

- **الصمم فلا ينتفعون بسمع**: ونحن نشاهد هذا اليوم عياناً فلا يحتاج إلى تفسير، إن القوم يسمعون كلام الله فلا ينتفعون به، ويسمعون حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينتفعون به، ويسمعون نداءات الشعوب المسلمة الصادقة الذين لا يريدون إلا أن يُخلّى بينها وبين نصرة إخوانها فلا يفهمون هذا النداء ولا يردون عليه، ويسمعون صراخات الأطفال وصيحات الأمهات واستنصار المسلمين فلا يفهمون ذلك ولا يردون عليه، فصدّق الله عليهم قوله فأصمّهم عن السماع النافع لذلك كله، نعوذ بالله من الخذلان والهلاك.

- **العمى فلا ينتفعون ببصر**: وهذا من تمام الأول، فهؤلاء لهم أعين لا يبصرون بها البصر النافع، فهم يرون آيات الله الكونية فلا يعتبرون، ويرون مشاهد القتل والتدمير والعدوان الهمجي الصهيوصليبي على إخوانهم المسلمين فلا يتحركون، قد عميت أبصارهم، وصُمّت آذانهم وقست قلوبهم، فهم لا ينتفعون بهذه الحواس، ولا تنفعل قلوبهم لها، وهذا غاية الخسران، وأشد ما يكون من الذل والهوان.

وتأمل إلى المجانسة بين هذا الوعيد أعني الصم والعمى، وبين ما تقدم من صفة المنافقين من الطبع على قلوبهم، فالسمع والبصر بين يدي القلب كالخادم له، فإذا تعطل الخادم تعطل المخدوم، وإذا تعطل المخدوم لم يجدِ الخادم نفعاً، فكيف إذا تعطل ذلك كله، نعوذ بالله من ذلك. وتأمل مناسبة هذا كله لقول الله تعالى بعد ذلك: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها)؛ فتدبر كلمات القرآن يحتاج لسمعٍ سليم لمن يسمع تلاوته، ويحتاج لبصر سليم لمن يقرأ بعينيه، كما يحتاج كل ذلك إلى سماع ما يحدث ومشاهدة ما يقع من آيات الله الكونية ليكون إسقاط معاني الكتاب على واقع الناس إسقاطاً صحيحاً نافعاً، فإذا صُمت الأسماع، وعميت الأبصار، فكيف يكون التدبر في القرآن الكريم؟ قال ابن كثير: "يقول تعالى آمراً

بتدبر القرآن وتفهمه، وناهياً عن الإعراض عنه فقال: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها) أي: بل على قلوبٍ أقفالها، فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه"[98]، قلت: فيا لها من عاقبةٍ وخيمة ونهاية أليمة تلك التي تنتظر المعرضين عن سورة القتال وغيرها من سور القرآن، الصامّين آذانهم عن نداء الله للجهاد في سبيله، وعن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتماع يد المسلمين على عدوهم، وعن نداءات الاستغاثة من أطفالهم ونسائهم وإخوانهم في غزة المسلمة، العامين أبصارهم عن مشاهد القتل والتحريق والتدمير والتهجير فلا يتحرك قلبهم لشيء من ذلك لأنه قلبٌ مقفل مطبوع عليه، فلا تعجبن أيها المسلم بعد اليوم من خرس هؤلاء وشللهم عن أي قولٍ مجدٍ أو فعلٍ نافع بعد اليوم، إلا أن يريد الله سبحانه وتعالى أمراً، ولنحذر – بعد أن علمنا أن القلوب ومفاتيحها بيد الله تعالى – من أن نقع في مثل ما وقع المنافقون فيه فتصم آذان بعد سماعها، وتعمى عيونٌ بعد إبصارها، ويُطبع على قلوبهم بعد هدايتها، وهذه هي الصلة بين هذا الموضع من السورة والموضع الذي يليه، فلنتأمل:

---

[98] تفسير ابن كثير – ٧/٤٢٨

تاسعاً: بيان حال المرتدين والتحذير من مآلهم:

بعد أن تقدم معنا فريق الكفر وفريق الإيمان وفريق مرضى القلوب، نبهت السورة المباركة إلى فريق رابع هو فريق المرتدين، ومناسبة ذكرهم لسياق سورة القتال واضح، فنزول حكم القتال وفرضه على المؤمنين أمرٌ شديد على النفوس، يهلك فيه من يهلك، يحيا فيه من يحيا، ثم إذا اشتعلت نار الحرب وأُضرمت، وافترق فسطاط الناس إلى فسطاط المجاهدين في سبيل الله وفسطاط المقاتلين في سبيل الطاغوت، لزم الناس أن ينحازوا إلى أحد الفسطاطين، وعندها يثبت من وفقه الله تعالى على الإيمان فينضم لفسطاط عباد الرحمن، ويرتد من خذله الله عن إيمانه فيرتد وينتكس في فسطاط الكفر والمحاربة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين، ولذا ناسب أن يحذر الله تعالى من هذه الانتكاسة، وناسب أن يحذر الله عباده المؤمنين من هؤلاء المنتكسين،

قال الله تعالى: (**إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ. ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ. فَكَيۡفَ إِذَا**

تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ. ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ)[99]،

ولا بد لنا من التعرف على مقدمات وعوامل هذه الردة اتقاءً لها وحذراً منها، فإن الثبات على الإيمان أمرٌ جلل، وإن فتنة القتالِ مظنةُ زعزعة الإيمان الضعيف، ومدحضة أقدام القلب المريض، فنتلمس عوامل الخذلان اتقاءً لها، ولنتدبر في عاقبة المرتدين العائدين كفاراً بعد الإيمان استعاذةً بالله من حالهم:

- **تسويل الشيطان وإملاؤه للمرتدين:** نعم، لقد سوّل أي زيّن الشيطان للمرتدين كفاراً بعد إيمانهم، زين لهم فعلهم القبيح وحسنّه لهم، ومع هذا التزيين القبيح فإن الشيطان أملى لهؤلاء فأغراهم وخدعهم، ووعدهم طول العمر، وقد يكون الإملاء من الله تعالى كما هو وجه آخر عند المفسرين[100].
- **طاعة أعداء الله والمشركين ولو في بعض الأمر:** إن الله تعالى قد أملى لهؤلاء المرتدين على أعقابهم المتّبعين تسويل الشيطان المغترين بتزيينه الباطل، فمدّ الله تعالى لهم كي يتمادوا في غيهم وذلك من

---

[99] سورة محمد – الآيات ٢٥-٢٨

[100] انظر تفسير ابن كثير ٧/٤٢٩، والقرطبي ١٦/٢١٢، والطبري ١٠/٢٠٢

أجل أنهم أطاعوا أهل الكفر وأهل الشرك وأهل النفاق في ما يريدون مما هو خلاف ما أمر الله تعالى به، قال ابن كثير: (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر) أي: مالؤوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل"[101]،

قلت: فإذا كان هذا الاستدراج والإملاء والخذلان لأجل أن المرتدين والمنافقين أطاعوا أهل الكفر والحرابة في بعض الأمر، فكيف بمن يطيعه في معظم الأمور، بل كيف بمن يطيعه في كل الأمور...

- **خبث طويتهم وسوء سريرتهم**: وهذا شأن المنافقين يُظهرون خلاف ما يُبطنون، ولهذا قال الله عز وجل (والله يعلم إسرارهم) أي يعلم ما يسرون وما يُخفون، الله مطلعٌ عليه عالمٌ به[102]، وسواء أكان هذا الذي يسرون به محض الكفر المخالف لما يُظهرونه من الإسلام، أم كان مناصحتهم ومالأتهم للكفار المحاربين من المشركين واليهود والنصارى ينصحونهم ضد مصالح المسلمين وبخلاف ما أمر به رب العالمين، فالأمر سواء، فهي كلها خبايا رديئة، وبواطن نفوسٍ خبيثة، وهذا صريحٌ في أن تولي الكفار المحاربين وإعانتهم بالرأي والمشورة

[101] تفسير ابن كثير – ٧/٤٢٩
[102] تفسير ابن كثير – ٧/٤٢٩

وطاعتهم على خلاف أمر الله تعالى أنه ردة بعد الإيمان، وضلالة بعد الهدى، والعياذ بالله. والحقيقة أن طاعة المرتدين والمنافقين للكفار المحاربين أمرٌ ظاهر لا يخفى لأنهم يطيعونهم بالأقوال والأفعال كما هو ظاهر، ولما قرن الله تعالى ذكره هذه الصفة بعلمه بإسرارهم دل على أن طاعة الكفار في مخالفة أمر الله تعالى في الظاهر هو أثرٌ لما كانوا يستسرون به من بغض دين الله وحب أعداء الله في الباطن فيوقت الرخاء، حتى إذا جاءت الحرب الفاضحة – وحرب غزة اليوم حربٌ فاضحة – علمنا من كان يُسِرُّ كُره دين الله بما ظهر منه من طاعة عدو الله، فتأمل هذا المعنى يغنيك عن كثيرٍ من الاستدلال.

وإن من بديع التعبير القرآني لما ارتد هؤلاء على أدبارهم بالكفر بعد الإيمان، وأظهروا طاعتهم لأعداء الله وأولياء الشيطان، وهذه الطاعة تعبيرٌ ظاهرٌ بالأقوال والأفعال، ناسب أن يكون الجزاء الوفاق ضرباً لهم – عند قبض الأرواح وتعصّيها في الأجساد – فتضرب وجوههم التي واجهوا الكفار بها في طاعتهم وعصيان أمر الله، وتضرب الأدبار التي ارتدوا إليها كفراً بعد الضلال، تأمل: (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم).

- **اتباع ما يسخط الله:** وهذا تأكيد لما تقدم من اتباع المرتدين لما يسخطه الله تعالى من تولي الكفار وطاعتهم وإقرارهم على بغضهم لدين الله عز وجل.
- **كره رضوان الله:** وهذا تأكيد على أن اتباع المرتدين لما يبغض الله وطاعتهم للكفار ليست عن زلة قدم أو خطأ اجتهاد، بل هو عن سابق إصرار وإمعان، بعلامة أنهم كرهوا رضوان الله أي كرهوا الأسباب الموصلة لرضوان الله وهي الإيمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وطاعة الله فيما أمر به من القتال في هذه السورة المباركة. فالذي يتبع ما يسخط الله خطأً لا يفعل ذلك كارهاً رضوان الله، أما من يتبع ما يسخط الله قصداً إنما يتحرى ذلك لأنه يكره رضوان الله والأسباب الموصلة لنيل هذا الرضوان، فتأمل مدى انحطاط القوم في هذا.

هذه العناصر التي أدت إلى الردة والكفر بعد الإيمان وإلى الضلالة بعد الهدى، وإن عاقبة ما تقدم كله حبوط العمل، وهذا تحذيرٌ ووعيدٌ لمن له سابقة إيمانٍ وعملٍ صالح أن يحذر مما يؤدي إلى إبطال عمله وذهابه سدىً

إن هو أطاع الكفار في ما لا يرضي الله من قتل المسلمين والفتك بهم والعدوان عليهم.

عاشراً: علامات النفاق والحذر من المنافقين:

إن الحرب كما تقدم هي الفاضحة وهي الكاشفة، فإما أن يثبت الله قلوباً بإيمانها فتثبت أقدامها في ساحة الجهاد مهما بلغت بارقة السيوف من فتنة، وإما أن يُخرج الله ما في القلوب المريضة من حقد للإسلام وأهله فيرتد أصحابها عن الإيمان إلى طاعة أولياء الشيطان، تأمل قوله تعالى:

(أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ. وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ. وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ)[103]،

قال ابن كثير: "أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر"[104]،

---

[103] سورة محمد – الآيات ٢٩-٣١

[104] تفسير ابن كثير – ٧/٤٢٩

قلت: وهذا الكشف في سياق القتال والحرب إنما هو للتحذير من خطرهم فلا يؤتى المسلمون من قِبلهم، وللاعتبار بأحوالهم فلا ينساق المسلمون وراء طاعة الكفار المحاربين الكارهين لما يحب الله التابعين لما يسخط الله، فهو تحذيرٌ كوني- شرعي، ميداني – سياسي، فليتنبه.

ولهذا نبه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على علامات المنافقين لأن ما يمكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم معرفته بالوحي من بيان أعيان المنافقين لا يتأتى لأمته صلى الله عليه وسلم من بعده لانقطاع الوحي، **فبقيت العلامات التي أشارت إليها الآية (ولتعرفنهم في لحن القول)، وننبه هنا على أن هذه العلامات هي للحذر الدنيوي وليست للحكم الدياني**، لأن المنافق يُظهر كما هو معروف من حاله ظواهر الإسلام فلا يجوز تكفيره بغير دليل قاطع، فلهذا قال تعالى: (والله يعلم أعمالكم) قال الطبري: "لا يخفى عليه العامل منكم بطاعته، والمخالف لذلك، وهو مجازي جميعكم عليها"[105]، فالتحذير من المنافقين في ميدان القتال لعظيم خطر الدلالة على عورات المسلمين وإعانة الكافرين عليهم وليس للحكم الدياني عليهم، فلا تنقلب ميادين الجهاد ساحات تكفير بين أبناء الأمة

[105] تفسير الطبري – ١٠/٢٠٤

الإسلامية، فالحذر الحذر من ذلك، ومرد الأمر في الميدان إلى المجاهدين وقادتهم وعلمائهم في الميدان يتحسسون الجاسوس والمنافق والمتعاون مع العدو والمتخابر مع العدو وفق أحكام الجهاد وأحكام الجاسوس المسلم كما هو مبسوط في مظانه، فالحذر الحذر من الغلو في هذه المسألة، والله الموفق.

ثم قال الله تعالى: (**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ**)، بياناً لطرفٍ من حكمة الله تعالى البالغة بابتلاء المسلمين بعدوهم الكافر يقاتلونهم ويقاتَلون، يقتلون منهم ويُقتلون، حتى يتبين ويتميز أهل الجهاد وأهل الصبر والرباط، فيقع في المشهود ما هو معلومٌ لله تعالى حتى تستأنس قلوب عباده بحكمته في الاختبار والامتحان، فيميز الخبيث من الطيب، ويُري الله عباده مآلات أعمال العباد وأخبارهم. ونحن إذا نظرنا إلى هذه الحرب الضروس والهمجية الشعواء لمجرمي الصهيونية الصليبية على أهل غزة نرى ما أراد الله تعالى لنا أن نراه من جهاد المجاهدين، وصبر المرابطين، ونعرف ما أراد الله تعالى أن نعرفه من الصادق والكاذب، فليس قطرة دم من دماء المجاهدين تذهب سدىً، وليست روح واحدة من أرواح الموحدين تزهق هباءً، كلا.

حادي عشر: الإعلام العسكري والعقيدة الجهادية للأمة الإسلامية:

إن تخاذل المتخاذلين عن نصرة أهل الحق قد يولد وهناً في النفوس، وقد يُدخل عليها ألواناً من الهموم خشية تضرر المسلمين ورسالة الإسلام بهذا الخذلان، وهذا فنٌ عزيز يتعلق بما يعرف اليوم بالحرب النفسية أو المعنوية، وترصد الدول والجيوش القناطير المقنطرة من الأموال والطاقات لإدارة الحرب المعنوية، **ونحن لنا حربٌ معنوية عنوانها "نُصرت بالرعب"، وعقيدتها (لن يضروا الله شيئاً)، ووسيلتها (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول)، وحراستها (ولا تبطلوا أعمالكم).**

قال الله تعالى: (**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ. يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ. إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ. فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ**)[106]، وهذا عَودٌ على بدء، ليترسخ في النفوس أن

[106] سورة محمد – الآيات ٣٢-٣٣

المعركة معركة عقيدة تدور بين أهل الكفر وأهل الإيمان، بين أهل الباطل وأهل الحق، بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن، وفي هذا المشهد من السورة مسائل:

- **عنوان المعركة جهاد الكفر المحارب:** وهذا تأكيدٌ على مناط استحقاق الكفار للقتال، (كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقّوا الرسول) فإنهم لم يكتفوا بكفرهم بل ضموا إليه الصد عن سبيل الله ومحاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الأمر في غاية الأهمية في سياق الحرب الإعلامية العسكرية ليكون شعار الحرب شعاراً شرعياً دينياً، لأن من قاتل لأجل أرض يستطيع أن يهاجر إلى غيرها إن استسلم ونكل عن القتال، ومن قاتل لأجل وطنٍ ينجيه أن يلجأ إلى وطنٍ آخر، ولكن من كان يقاتل في سبيل الله وفي سبيل دين الله فكيف يهجر ذلك إلى دين آخر؟ وكيف يهجر الله إلى ربٍ آخر؟ **نحن إذاً نحيا لله ونموت لله، نقاتل لله ونستشهد لله، فأي إعلامٍ حربي لا يرفع هذه الراية بيضاء ناصعة فإنه يضيع البوصلة ويستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير**، فليتنبه لذلك.

- **الدستور الأخلاقي للمعركة قيام الحجة الرسالية:** فنحن حين نجاهد في سبيل الله لا نقاتل انتقاماً، ولا نسفك الدماء تشفياً، ولا نستبيح الأعمال العسكرية همجيةً كما يفعلها الكفر الصهيوني الغادر وتفعله الهمجية الصليبية الطاغوتية، بل نجاهد في سبيل الله رفعاً للظلم، ودفعاً للظالم، وإقامة للحجة الرسالية (من بعد ما تبين لهم الهدى)، وهذه هي روح الإعلام الحربي للمجاهدين، الدعوة إلى دين الله، وإلى توحيد الله، وإلى إقامة العدل بين الناس تحت مظلة شرع الله كلٌ على ما يختار لنفسه من عقد إسلام أو ذمة أو معاهدة أو أمان.
- **تحقيق عقيدة توحيد الأسماء والصفات:** فلا يغرنّك أيها المجاهد انفضاض الدنيا بأسرها عنك، فإنهم (لن يضروا الله شيئاً)، ولا يغرنك أيها المخذِّل اجتماع الدنيا بأسرها حولك، فإن الله محيط بهم (وسيحبط أعمالهم). فنحن نؤمن أن الله وحده النافع، وأن الله تعالى وحده المبتلي بالضرر مع ما فيه من الحكمة البالغة علمها من علمها وجهلها من جهلها، وبهذا تكون الحرب تمحيصاً للقلوب فيتحقق فيها الإيمان ويُستخرج منها النفاق ويُقمع فيها الكفر، وتمييزاً للعاملين

فيتبين المحسن من المسيء، فلا يستوي من جاهد فقاتل جنود الكفار وأثخن فيهم مع من اعتدى فصبَّ وابل حممه وقنابله على الأطفال والنساء، والمرضى في المشافي، والمصلين في المساجد، لا يستوون. ولقد أذهل العالم ما ثبت الله تعالى به المؤمنين في غزة من حمدٍ لله وتهليلٍ لله وتسبيحٍ لله مع كل وابل رصاص يُفقد به عزيزُ أحدِهم وحبيبه، ومع كل انفجار قنبلة يُستشهد فيه فلذة كبد أحدهم وثمرة فؤاده، فلا تكاد تسمع إلا "الحمد لله"، فليكن الإعلام العسكري مبرزاً لهذا لتقوم الحجة على الخلق و ليتبين الناس الفرق بين المجاهدين في سبيل الله وبين المسعورين في سبيل الطاغوت.

- **حراسة الأعمال بالتزام دوام الطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم:** وهذا تبنيه مهم على أن الأعمال بخواتيمها، فلا يغتر مجاهد بجهاده، ولا يغتر محسن بعمله، ولا ييأس مقصر في تدارك ما فات، ولكن الطامة هي الردة والموت على الكفر، ولعل هذا سر الآية التي تليها (ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم).

هذه هي العقيدة الجهادية للمؤمنين إذاً؛ جهادٌ في سبيل الله ضد الطاغوت الصاد عن سبيل الله المشاق لرسوله صلى الله عليه وسلم، وصدعٌ بالحق لا

نخاف من مخلوق ضراً ولا نرجو منه نفعاً، وثباتٌ على طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم حتى تختم الأعمال بالإيمان، واحترازٌ من الكفر وأهله خشية بطلان الأعمال، **وهذه العقيدة هي المحرك لآلة إعلامنا العسكري، وهي الروح الجهادية للمؤمنين في كل زمان ومكان**، يتربصون بمن كفر وحارب، وبهذه العقيدة الجهادية تتحقق ثمرة الإعلام الحربي والحرب المعنوية: (فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ)، فالأهداف المقصودة من الإعلام الحربي والإسناد المعنوي للجيش الإسلامي هي الاحتراز من مخاطر عظيمة هي: الوهن والضعف، والاستسلام دون المقصود من الجهاد، وتوهم الدونية مع العدو، والغفلة عن شهود معية الله عز وجل، وتوهم عبثية الأعمال الصالحة لتأخر ثمرتها أو انحباسها في الدنيا. وعلاج ذلك كله شهودُ معيّة الله (والله معكم)، واعتقادُ حُسنِ العاقبة (ولن يتِركم أعمالكم)؛ قال ابن كثير: "وقوله جلّت عظمته: (والله معكم) فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، (ولن يتركم أعمالكم) أي: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئاً والله أعلم"[107]

[107] تفسير ابن كثير – ٧/٤٣٢

ثاني عشر: موجبات سورة محمد والآثار المترتبة عليها:

لما كان القتال في سبيل الله فيه خسائر مادية عاجلة من فقدٍ للأموال وإزهاقٍ للأنفس، وهدمٍ للديار، وتهجيرٍ من القرى، نبّه الله تعالى على أن ذلك ليس بشيء في مقابل ما أعده الله تعالى لعباده المجاهدين الصابرين من الجزاء، وحذرهم أيضاً مغبة البخل عن بذل ثمن الجنة، والتقاعس عن القيام بعبودية الجهاد وإقامة حكم الله تعالى بين العباد، فقال تعالى:

(إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ. إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ. هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُمْ)[108] ؛

قال ابن كثير رحمه الله: "يقول تعالى – تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها : (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل"[109]، ولكن هنا مسألة، وهي أن المخاطب بهذه الآية هم المسلمون

[108] سورة محمد – الآيات ٣٦-٣٨

[109] تفسير ابن كثير – ٧/٤٣٣

كلهم، وليس أهل غزة فقط، فلا يصح أن تنعم الأمة الإسلامية بأمنها وحياتها ولعبها ولهوها ومهرجاناتها وعلاقاتها الدبلوماسية وغازها ونفطها وشجرها وغذائها ثم نحصر خطاب تحقير الدنيا في أهل غزة، لأن الله تعالى إنما يُحقّر أمر الدنيا في عين من يملك منها شيئاً، أما المسلمون المحاصرون المقطوع عنهم الماء والغذاء والهواء، والذين قُتلوا في ا لحصار قبل الحرب، وهم يُقتلون في الحصار في الحرب، فإن من السفاهة أن نقول لهم إن هذه الحياة ليست بشيء فلا بأس بتقتيلكم وتشريدكم وتمزيقكم إرباً في جحيم القنابل الحارقة والصواريخ الفسفورية والرصاص المتفجر؛ نعم إن في خبر الله تعالى عن تفاهة الدنيا وما أعده الله تعالى لعباده المتقين من الأجور (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) إن فيه سلوى وعوض عما يفوتهم من الدنيا، ولكنه ليس خطاباً لأهل غزة وحدها، بل هو خطابٌ للأمة الإسلامية بأسرها، فليس حق أطفال غزة في الحياة بأقل من حق ولدي وولدك، وليس حق أهل غزة في صون حرمات دمائهم وأعراضهم وأموالهم بأقل من حقي وحقك في صيانة حرمات دمائنا وأعراضنا وأموالنا، فليتنبه لذلك.

يدلك على ذلك، قول ابن كثير رحمه الله: "ولهذا قال تعالى: (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم) أي: هو غنيٌ عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساةً لإخوانكم الفقراء ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم، ثم قال: (إن يسألكموها فيُحفِكم تبخلوا) أي: يُحرجكم تبخلوا، (ويخرج أضغانكم)، قال قتادة: قد علم الله أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان"، وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه"[110]، والشاهد، أن تحقير أمر الدينا فيه معنيان؛

- **الأول** تهييجٌ للمؤمنين على بذلها اختياراً في سبيل الله،
- **والثاني** تصبير للمؤمنين إن سُلبت منهم قهراً بما هو خير منها جزاءً على الصبر، والله أعلم.

فإذا كان خطاب تحقير الدنيا لأهل غزة المؤمنين تصبيراً على ما يفوتهم منها من نفسٍ ومالٍ وولدٍ قهراً واضطراراً، فإن هذا الخطاب متوجه إلينا تهييجاً واختياراً، حتى لا نقع في وعيد قوله تعالى: (**هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن**

[110] تفسير ابن كثير – ٧/٤٣٣

نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُمۡ)، أما أن يسدد المؤمنون من أهل غزة أقساط البيعة عن الأمة الإسلامية جمعاء، فكلا. وإذا كان الله تعالى قد حرّض على بذل الأموال في سبيله اتقاءً لخطر الاستبدال، فإنه خطابٌ ببذل الأنفس في سبيل الله أيضاً، فليتنبه لذلك.

ونحن وإن حالت بيننا وبين نصرة إخواننا موانع، والله أعلم بصدق عذر كلٍ منا، فإن آية صدقنا في ذلك عقد العزم، وتحرير النية، وإعداد العدة، وقد أشارت الآية لذلك بذكر الإنفاق في سبيل الله، فقد فتح لنا أهل غزة للجهاد باباً توهم الناس أنه قد أغلق بلا عودة، والحرب سجال، والأيام دول، فليعد كل منا عدته، وليتلمس معالم نزال الكفار المحاربين التي تعرضنا لشيء منها في هذه الرسالة المختصرة؛

فمن كان ذا زوج فليطلب الولد للجهاد،

ومن كان ذا مالٍ فلينفق في سبيل الله،

ومن كان ذا عقلٍ فليُعِن إخوانه بآلة حرب مخترَعة،

ومن كان ذا قلمٍ فليجاهد بقلمه،

ومن كان ذا قوةٍ فليواصل استعداده حتى ينفرج له الطريق، وما يدريك لعل الجهاد يدركك قبل أن تدركه، فالأيام حبلى، وأرض الله واسعة، فلترصد أعداء الله أينما كنت، ولتقعد لهم كل مقعد، والله غالبٌ على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

تم الفراغ من كتابة هذه الرسالة في ٢٨ ربيع الثاني ١٤٤٥ للهجرة النبوية الشريفة الموافق ١٢ تشرين الثاني / نوفمير ٢٠٢٣ للميلاد وحرب غزة الهوجاء ما زلت مستعرة، وإخواننا في الله يسطرون أروع ملاحم البطولة، فاللهم مجري السحاب، منزل الكتاب، هازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم، اللهم أطفئ نار هذه الحرب، واجعلها على المؤمنين برداً وسلاماً، وعلى الكافرين ناراً وجحيماً، ولا تحرمنا أجر جهاد المجاهدين، ورباط المرابطين، والصلاة والسلام على قائد المجاهدين وإمام الغر المحجلين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه

وسيم فتح الله